

دعاء عبد الرحمن

رواية

وَقَالَتْ لِي!

دعوة لظهِم العالم الآخر



وقالت لي

رواية

دعاء عبد الرحمن



توزيع: دار النور

إهداء

إلى كل من لا يعتقد أنه يمتلك الحقيقة الكاملة وحده

افتتاحية

قد تعتقدونها مجرد حكاية

وقد ترونها دعوة لفهم العالم الآخر!

وصية بين القبور

ما الذى جاء بها إلى هنا ؟

مضت سنة أشهر على وفاته في حادث سير مروع، بعد أن اختزفت حنجرته أسياخ حديدية كانت مُحملة فوق الشاحنة التي تسبق سيارته ونفذت للإتجاه المقابل. إلى متى ستظل تُقرع نفسها لتقاعسها عن حضور جنازته ؟، هاهى وكما تفعل أسبوعيًا، تأتي إليه وتجلس على حافة قبره بالحناءة مبالغة إلى الأمام، ملابسها السوداء الطويلة كقامتها مُتغيرٌ ذيلها بعبار المقبرة، وتعتذر .. تعتذر عن كل شيء .

كيف تحضر جنازته وهي التي قتلته ؟، ألم تكن هي التي أصرت على أن يقلّها إلى حفل زفاف زميلتها في العمل. ماذا لو كانت أطاعت والدتها ولم تذهب إلى الحفل، هل كان هذا كافيًا لبقائه حيًا بمأوى البيت دفنًا وحيًا كما هي عادته دومًا، هل تستطيع أن تنسى جحوظ عينيه، وهو يرتعش ودمارؤه تنزف حول الأسياخ التي أصبحت هي وجسده الطويل قطعة واحدة. لماذا لم تمت هي الأخرى لترتاح أسرتها من شؤمها ؟، هذه هي عبارة والدتها دومًا منذ أن وقع هذا الحادث المشنوم، نسمعها إياها كل ليلة وهي تصرخ محتضنة صورته المظورة، وهل تحتاج

إلى صورته ؟، ملامحه منقوشة بداخلها على الدوام، عيناؤ شتوتان تبرق
كلما ابتسم، شعره الرمادي بفعل السنين لم يزد سوى جاذبية في عيني
شريكة عمره، وابنته التي تعشق حناؤه النادر وهو يناديها باسم جدتها
المُحِب لها .

تحسست رؤى ترى القبر الندي بأناملها وهي تمس بألم:

- أبي، صدقني لو عادت تلك اللحظة لما خرجت إلى ذاك الحفل
أبدًا، لكنك أظمت والدتي، أبي أحثجك، أحثج مساندتك، منذ
رحيلك وأمي تكرهني، بيتنا لا يُطاق بدونك، أنا لا ألومها، أنا ..

قاطعتها نحنة متحشجة مرتبكة آتية من خلفها، التفت عاقدة
حاجبيها متوترة بتوجس فاصطدمت عيناها بامرأة نحيلة تقف عند باب
المدفن ورغم المشقة البادية عليها إلا أنها تقف باستقامة واعتزاز وكأنها
قد حازت للتو نصراً ما، تُعبد وضع نظارتها الشمسية القائمة بملكو
وفيب حرارة الصيف جعل جبينها يتفصد عرقاً وهي تمسحه بمحرمة
ورقية بيضاء. تحسست رؤى من مجلسها بجوار القبر تنفض ثوبها وتقدمت
نحوها بارتياح، صعدت المرأة درجة السلم التي فصلت بينهما
وتحننت مرة أخرى قائلةً بحدوء، لا تعرف كيف تبدأ حديثها:

- ائمم، اعتذر عن تطفلي، ولكن ..

صمتت مرة أخرى وقد نال من نبرتها بعض الارتباك قبل أن تحسم
أمرها وهي تُشد كفيها قائلةً بحسم:

- آنسة رؤى أعرفك بنفسى، أنا هالة

انعتقد حاجبا رؤى أكثر وهى تنظر إليها بشك، من هذه؟ وكيف تعرفها ؟ نظرت إلى كف هالة الممدود نحوها ثم عاودت النظر إليها
مسانلة:

- هل تعرفينى ؟

سحبت هالة كفها بتفهم وقالت بابتسامة مرتعشة وهى تنزع نظارتها
بيضاء:

- لدي طفلتان توأمان فى دار الروضة التى تعملين بها، جنى و
لجين لو تذكرينهما، تتكلمان عنك بحروفهما المتعشرة تلك طوال
الوقت، معى !!

لا تعلم رؤى لماذا قالت المرأة الكلمة الأخيرة بنبرة خاصة وهى
تضغط حروفها وكأنها تؤكد وحدتها مع طفلتيها لوقت طويل، ولكن
كيف عرفت بتواجدها الآن عند قبر والدها ؟ ورغم اضطرابها حركت
رأسها بتذكر محب وهى تقول:

- نعم، بالطبع أذكرهما، فلديهما ابتسامة حلوة تذهب عنى غناء
مشاكستهما التى لا تنتهى .

ضحكت هالة بخفوت ضحكة صغيرة ثم ربت على مرفقيها بتودد

قائلة:

- أعانك الله حبيبى، فانا العملهما بصعوبة في المنزل، لا أعلم كيف
تحمّلين التدريس لكل هذا العدد من الأطفال، وحسبنا أن
منهم عددًا كبيرًا لديهم صعوبة في النطق مثل جنى و الحين .

فتحت فيها بحماسة لتكلم عن شعورها بالفخر بما وهى تدرّسها
على نطق الحروف نطقًا صحيحًا ولكنها صمتت في اللحظة الأخيرة
ونظرت للخلف نحو القبر وهى تؤنّب نفسها بقوة. كيف تلفّ لبسم
هكذا بعد أن كانت تحفظها العبرة والذب منذ قليل؟، هل سمعها؟، هل
هو غاضب؟!

لاحظت حالة شرودها وصمتها الذى طال وشحنات التوتر البادية
على حركات كفيها وهى تتركها ببعضهما البعض، فجمعت شئنا
نفسها قليلًا وتوجهت نحو الدرج الحجرى المرتفع بعض الشيء بجوار
مجموعة أزهارٍ ذابلة مُلقاة بإهمال وجلستُ بأريحية وقد قررت الكشف
عن سبب وجودها في هذا المكان. تقدمت رؤى باتجاهها وهى تفكر في
كيفية صرفها بلباقة، فهى مازالت تود مصاحبة والدها بعض الوقت،
ولكن حالة فاجأتها بأن أشارت إلى المساحة الشاغرة بجوارها وهى تقول
بنبرة حملت رجاءً من نوع خاص:

- هل من الممكن أن نتحدث قليلًا، من فضلك؟ .

أصابها بعض الترم وهى تجلس بمجدع منحني للأمام قليلًا، تكاد
تلامس الدرج الحجرى لمّا مستندةً إليه بكفيها معتمدةً عليهما وكأنها

مناهبةً للقفز واقفةً في أية لحظة. رفعت حالة نظارتها فوق حجاب رأسها الرمادي، ملأت رئيتها بالهواء بقوة والذي حمل لها نفحةً من رائحة الليمون المنعش، ثم زفرت ببطء واضعةً جميع انفعالاتها في تلك الزهرة ثم التفت إليها، وبخفوتٍ، وببرة لفحتها الرعشة رغماً عنها، قالت:

- أعرف، أنا متطفلةٌ وفضولية في نظرك الآن، ولو كان الوقت يبدى لكنت تركت باب صداقتنا موارباً تفتحها الأيام والمناسبات بروية، ولكنني مضطرةٌ للقفز فوق كل تلك الاعتبارات، فأنا أسابق لحظاتي الأخيرة.

التفت روى بحركة حادة نحوها وقبل أن تُعلق متسائلةً تابعت حالة وهي تنظر في عينيها بثبات:

- عندما رأيتك قدراً منذ شهر تقريباً عند بداية منعطف المدافن تعرفتُ عليك بسهولة وحاولت التحدث معك ولكنني خجلت، وبشكل غير مقصود سرت خلفك، فمدفنا الخاص بعائلتنا في المنعطف التالي مباشرة، وشاهدتك وأنت تدلفين هنا، فعلمت بأن هذا المدفن يخص عائلتك.

صمتت مجدداً تلتقط قوتها مع أنفاسها وروى تتجاذب أطراف الصمت معها تنتظر التهمة لهذا الحديث المريب بالنسبة لها ولتعلم كيف عرفت حالة بمكانها الآن، بينما أردفت حالة بشرود:

- حاولت أيضًا فتح أي حديث معك عندما كنت أذهب
لاصطحاب بناتي من دار الروضة، ولكن شحوبك الذي يزيد
يومًا بعد يوم جعلني أتراجع، و..

تخرج صوتها وقد خفيتها غصة مُسننة وهي تستطرد:

- و خفت أن أبكي منهارة أمام بناتي فأفرعهما

مدت رؤى كفها لترت على كفها بتعاطف فما استطاعت سوى أن
تلمس ساعدها بأناملها وهي تقول بخفوت:

- هوني عليك

شعرت من داخلها بتصدع كلمتها ولكن ماذا بيدها أكثر من هذا،
إنما حتى لا تفهم لما اختارتها تلك المرأة لتفرغ أمامها ما جمعتها من
أحزان، لماذا يسلك الهم دومًا درجها مهما اختلفت بهما السبل
قاطع سيل أشجانها صوت هالة وهي تمس مطرقةً برأسها:

- أنا آتي إلى هنا أسبوعيًا، أتفقد قبرى!

إسعت عينها دهشةً وانقبض صدرها وهالة تتابع دون توقف:

- لاحظت أنك تحضرين إلى هنا أسبوعيًا أيضًا، وفي كل مرة كنتُ
أمرُّ بك ولكنك لم تلحظيني وأنت غارقة في أحزانك، تتحدثين إلى
والدك

وقفت رؤى وهى تشد على حزام حقيبتها فوق كتفها مصدومة. هل
ستمعت إليها أم هو مجرد تخمين؟! ثم ما حكاية قبرها ذاك. امرأة غريبة
ربكتها بشدة! تبعثها حالة ناهضة هامة بعبارات متفرقة برحاء:

- سامحني. لم أقصد التلصص عليك، وجدت بك ضالتي. أرجوك
استمعني للنهاية



كانت رؤى تنظر إلى الطريق في جلستها بجوار النافذة في سيارة
الأجرة التى استقلتها منذ قليل للعودة إلى منزلها بعد أن ودعتها حالة
وانصرفت منكسة الرأس منتظرة ردها ببأس! الهواء يلفحها تاركة العنان
لدموعها التى تمطل كأقطار غزيرة بلا توقف يذكر، لماذا قالت لها "
سافكر "؟! لقد كان طلب حالة منطقياً في مثل حالتها تلك ولكن ردها
هو الذى أذهلها حقاً. المرأة مصابة بمرضٍ خبيث وتعلم أنَّ مُكوئها بين
الأحياء الآن أمرٌ مؤقتٌ، تسعى لتأمين آخرتها بكل تلك الأعمال
الصاخة التى انغمست فيها منذ علمها بمرضها بما فيها زيارة قبرها
لتزود به فتعلو همتها للإكثار من الطاعات قدر استطاعتها. كما تسعى
لتأمين أم حنون لبناتها الصغار. وكما أخبرتها لقد وجدت بها كل ما
كانت تشده في تلك الأم. لقد كانت حالة صريحة إلى أبعد مدى عندما
سألها رؤى لماذا ظنت بأنها ستوافق على عرضها ذاك وقد كانت
باحثها وافية وهى تمس بخجلٍ من نفسها:

في المرة الأولى عندما استمعت إليك رغبنا عن أنت تتحدث
 في والدك. طست بالك مخد قصة حربة على رجل أمها. وكس
 في كل مرة التي لا تحدث إليك أنراجع في آخر خطه. فاسمع
 إليك وأنت تكررين نفس الحديث. تؤسين نفسك وتشتكين من
 سوء معاملة والدتك لك. تتحدثين عن نفسك بأني وعن زهد
 الخاطب بك وعن كرهك لتلك الخراف. وكأنك اكتشفتي فيها.
 فحدثت بك صالتي. بناتي يحونك للغاية وأنا وحيدة وليس لي
 عائلة غير زوجي وطفلي. فلمن سأترك بناتي إلا لامرأة أطمئن
 عليها بصحتها. ثم أن زوجي ليس له سوى أم عجوز وشقيقة
 كبيرة بالنس وتعيش مع عائلتها الصغيرة في منزل بعيد عن منزلنا.
 فما طبع رفق بعض الشيء ولن تتحمل تربية صغاري. وفي كل
 الأحوال سيبحث زوجي عن زوجة و أم بديلة. فلماذا لا تكون
 أنت ؟

ثم استطع رؤية تحمل نظرة الرجاء المتوسلة من عيني حالة الخنقة
 بالدمع وهي نفس بذرة اختلط بها الحزن بالواقعية التي تعيشها حالة
 الآن.

- ما أسمع من بناتي عنك يوميًا، يجعلني لا أرى لهما غيرك. أرجوك
 لا تغدلي. لا تغدلي شيخ امرأة مثلي على مشارف الموت. أخشى
 على صغاري الضياع أو راحة أب قاسية. إن وافقتي ستتقابل هنا

الأسود القادم. وكل أسود سيأتي حتى نحن نخطئ. وسأحرك
بكل ما أريد من معرفته عن بيني وعائلتي لنستطعم العيش معه
سلامة من بعدى. وسأخبر أم زوجي عنك. فهي في كل الأحوال
تبحث له عن زوجة أخرى منذ أن علمت مرضي !

سكنت حواس رؤى عندما ناداها السائق بأنها قد وصلت إلى
وجهتها المشوذة. فتحركت باضطراب وهي تنزل من السيارة. تقدمت
السائق أجرته والذي تلقاها بتدبير وهو يقينها بنظرة حائرة قبل أن
يطلق نهيمها بكلمات لم تسمعها بوضوح بل لم تسم لساعها من
الأصل. استدارت لتدخل البناية القديمة التي تقطن بطابقها الأرضي
والتي تحتل منتصف ذلك الشارع العتيق تمامًا فاصطدمت عينها بصورتها
المعكوسة على زجاج سيارة كانت تقف أسفل البناية تنتظر صاحبها.
رغم عدم وضوح الصورة جيدًا إلا أنها عكست ما تراه دائمًا في مرآتها
الخاصة. عطينا خديها واضحتان للغاية من شدة تحول وجهها. شعرها
الخفيف التي تجمع شق غرته الطويلة للخلف مع بقية شعرها بينما تترك
الشق الآخر مسدلاً فوق نصف وجهها الأيسر لعلها تدأى ذلك
الحول الظاهر عليها. عيناها الباهتان الرماديتان الشبهتان بعين
الأموات! لا حياة بهما مهما جمعت حولهما بالأصباغ

استندت إلى مقدمة السيارة وهي تفكر بشروء رافعة رأسها لأعلى قليلاً. تركت بصرها على نافذة غرفة والدها الالامعة وكأنه لم يهجرها يوماً. ومواجهة مروعة بداخلها تضح أنوثتها بغير هوادة.

- واجهى نفسك يا رؤى. هل قلت خا - سأفكر - لنفسيها فقط وتعلمينها تنصرف. أم أنك قد وجدتها فرصة للهروب من هنا. من ذكرى والدك الذي قتله عمادك أيتها الخسقاء. فرصة للهروب من والدتك. بل من أملاكها التي مارالت تسفن قريك تذكرك بفعل حبسها وزوجها كل يوم وكل دقيقة أيتها القاتلة. فرصة للهروب من عزوف الرجال عنك أيتها الدميمة .

صرخة أخرجتها من كل هذا. صرخة تعرفها جيداً. وقيل أن تعود برأسها للأسفل كانت جميع النوافذ فتحت وأطل منها جيرانها. سكان الطوابق التالية في بناتها وفي البناية المقابلة لها. ألم يملوا بعداً؟. لقد حفظوا تلك الصرخة الصادرة عن والدتها التي أصبحت يلقونها بالجنونة والمبلوسة. وقبل أن يغلقوا نوافذهم عائدتين إلى الداخل انطلقت الكلمات الحانقة من حناجرهم متداخلة مختلفة ولكنها جميعها بمعنى واحد " الأمزبات غير محتمل ". " لا بد وأن ترحل تلك الجنونة من هنا هي وابنتها تلك ". " شقنهم تلك مسكونة لا محالة ".

خطت ببطء وتلكؤ داخل البناية وهي تبسم بسخرية بانسة مهمة:

- تدمروا كما شئتم، هل ستقاطعوننا مثلاً؟! نعيش وحدنا لا يزورنا
أحدًا ولا يسأل عنا عابر، نعيش كالعناكب!

ومع أول خطوة لها بداخل البناية لاحظت إحدى جاراتها قبض
السلم مسرعةً وهي تلف وشاخًا قائمًا كبراً حول رأسها بطريقة غير
مهندمة وجسدها الضخم يهتز بشدة بداخل جلاباب المنزل الفصفاض
اخالك مع سرعة خطواتها الثقيلة وصوت سلسلة أساورها الذهبية
الكثيرة حول يديها لحدث رنًا مسيوعًا ومبًا عن هوية صاحبتها مما
جعل روى تسرع الخطى نحو شقتها. ولكنها لم تكمل خطواتها التالية بعد
عندما تسمرت قدماها وهي تسمع صياح المرأة بصوتها العليل منادية:

- انتظري مكانك

ابتعدت روى عن صحتها وهي تعلم ماذا يظنّها على يد جارّتها تلك
التي لم يرحبها عندما أوفعتها الأسوء الماضي. وما هي تعاود كرّرها
ولكن يبدو أنّ هذه المرة أكثر غصًا من سابقتها. حاولت أن تبدو
مستسكّة وهي تسير نحوها ببطء. وقبل أن تكمل استدارتها شعرت
بشخصية المرأة تلف حول ساعدها التحيل وتديرها لتواجهها هاتفةً بحق:

- ماذا فعلت فيما التقينا عليه الأسوء الماضي؟

تلك روى شقتها بطرف لساعا وهي تتسرع ساعدها بخذر من
فمسة المرأة وهي تحبها باضطراب

- خالي. نحن لم نتفق. أنت أمرتني بأن أحلى الشقة. وأنا ليس لدي
بديل. ماذا يبدي أن أف ..

قاطعتها المرأة صائحة وقد اشتدت عقدة حاجيها وتطاير الشرر مع
تطاير نظراتها الحادة:

- أنا لست بخالك أيتها البانسة. ولا نتحججني بالبديل. فلقد
عرضت عليك شقة أخرى تؤجر فيها في مكان آخر. ولكك
تعاطلين

فتحت روى فيها لتكلم ولكن المرأة لم تسمح لها وهي تزعجها بلا
رحمة:

- أم ثراك سعيدة بأحفادي الصغار وهم يحرون إلى السلم جرياً
برعب. خوفاً من شفتكم والصراخ الصادر منها مدة بعد مرة

أثقلت برأسها والاحساس بالذنب بلمستها التهاماً مسجلة الصغار
وهم يهرولون من باب البناية وحتى درجات السلم يخوف. ولكن من
يضمن لها إن قبلت عرض المرأة وانتقلت إلى الشقة الأخرى التي
عرضتها عليها أن لا يضجر منها جيرانها الجدد هناك ويفكرون بطردها
هم أيضاً. لماذا سيتحملون صراخ أمها وهم لا يعرفونها بينما من تربت
بينهم وكبرت لم يستطيعوا تحملها. من كانوا يضافحون والدها بابتسامة
ود وترحاب عند اللقاء. ويرتون على شعرها وهي في يده. تخلوا عنها
وصدقوا أن شفتهم مسكونة بشبحه وأن والدتها ملبوسة. فكيف يجيران

الحرى. ماذا يفعلون بما؟ ووجدت نفسها مضطربة على تكرار نفس الكلمة للمرة الثانية في هذا اليوم العرب فأومات برأسها منسدة

- سافكر

رفعت المرأة ساينها في وجهها مخدرة وهي تذف الكلمات بوجهها وكأنها رصاصات مخترقة:

- اسمعي. لقد فقد صري. ومن الواضح أنك لا تعرفين جيدا بعد.
إن لم تفعلين ما أمرك مسجدي أمك مثقاة في مشفى للمجانين من يوم وليلة، و..

- فتحية !!

نادا حائق جعلهما يلتصقان نحو مدخل المايه. شفتان فتحية يديها فوق صدرها مدر وهي تنظر إلى زوجها القادم نحوها بحسد الضخم وعصامته التي يرمى طرفها المدهى نادا على كلبه متبهلا وهو يحظر نحو زوجته معانا وما أن وقف فباللهما حتى رفع يده وربت على كتف روى قائلا بحنو:

- ادخلي بيتك يا بُنتي الآن

تنفست روى الصعداء وهي تستدير بسرعة الخطى نحو شفتها تلتقط أذناها أطراف حديث الزوج الحائق وهو يؤنب زوجته على ما تفعله بالفتاة اليئمة ورد زوجته الأكثر حنقا وهي تحاول إقناعه بعدم

الدخل. ولجت إلى شقتها واستندت بظهرها إلى الباب بعد أن أغلقت خلفها مغلقة عينها براحة، تستعد للجولة القادمة لتتلقى نصيبها اليومي من صراخ أمها، وشح والدها !

الشفة هادئة أكثر من اللازم، أمر مفلق بالفعل، الشفت تنظر نحو غرفة مكتب والدها فوجدتها مغلقة لا تظهر أي إضاءة من أسفل بابها. توجهت بعض الشيء وهي تخر قدميها إلى غرفتها، ووقع أقدامها نديها بأن تلعب حذاءها قبل أن تتوغل أكثر فيناها ما ينالها دومًا بسمة. فحلت عن حذائها جانبا وتقدمت لتضج باب غرفتها وعندما فعلت وأظلت برأسها للدخول بترقب مستعدة إلى صوت فساش بتمزق غلست له بعصها قبل أن تراه السعت عيناها وهي تنظر إلى والدتها التي تمسك بأحد المقصات الخادة وتفصل إزار دوراتها الجديدة عن فساشها بعد أن مرقت السحابة واخرة الذي يليها. فهزولت للدخول وهي تفتل على قبل أن تحزن جلد السورة من بين يدي والدتها :

- ماما لتعلمين غلاسي يا أمي، أرجوك أركبها

فصت والدتها شفتيها المكسرتين المتجعدتين والذين تخران قليلاً فوق فساش السورة الزرقاء الطويلة ثم رفعت وجهها المستدير التي تتوسطه عيناها الخادتان. ونظرت إليها نظرات مهتزة مشتتة يدفع فيها نظرة ذات حجاب معدية سوداء قائمة وتفحصتها بنظرات جمعت بين الخدعة والاضطراب متسائلة:

- هل نفقت قدميك قبل أن ندخل البيت؟

حاولت رؤية جذب تنورتها مجدداً وهي تفتن بصفي ونكد عيني

- نعم فعلت. والآن من فضلك أتركها. ليس مجدداً. ليس مجدداً
أمي.

وكان قبضي والدتها تقولت إن كلاتين منشقين بالصورة ونحمت
عينها وهي مازالت تتفحص عيني رؤية نكرو سافر وغيب من بين
أسنانها التي تطحنها بقوة:

- مازلت تخططين خلع السواد أينها الفبيحة. وغدت لعطرك
المحرف والمقرز مثلك. لن تنالي ما تريدن أبداً وأنا على قيد الحياة

انصرفت دمعاتها فوق وحنينها بغير وهي ترى التنورة تصرق بالفعل
بينهما فتركها لرغبة والشارت فوق فراشها صانحة بالفعال.

- لقد مزقت جميع ملابس أمي. لم يعد لي شيء سوى السواد
لأرتديه منذ شهور، إنا فقط تنورة أمي. مجرد تنورة جديدة لا
أكثر

جاءتها الإجابة على شكل صوت قزبي آخر قضى على آخر أمل
لها في إصلاحها وارتدائها ولو لمرة واحدة. منذ أسبوع ابتاعتها وخبأها
جيدا أسفل فراشها حتى لا يراها ما نال سابقتها ولم تتجرأ من يومها
على إخراجها من مخبأها، وها هي تراها مهلهلة أمام ناظرها لا حول لها

ولا قوة، رفعت عينها إلى والدتها التي تخرج من غرفتها بانتصار وانشاء
وعندما التفت عينيها أعادت والدتها خصلة بيضاء اشتعلت بالنار
خلف أذنها وعدلت من وضع نظارتها معصمة:

- لا أعلم لم لا ثوبين وبنّاح من شؤمك هذا ؟

التفت عليها نظرة متفجرة وهي تخرج من الغرفة بقدميها الخافيتين
التي ساهمت في إبراز قصر قامتها وصفت الباب خلفها بعنف. وماهى
إلا خطاها حتى دوى الصراخ في جميع أنحاء المنزل. صراخ تكاد الجدران
تتصدع من عنقه وقوته. الصراخ يعلو ويعلو بشكل تخيف. خافت أن
تخرج من غرفتها. اكتفت بأن وقفت خلف الباب مسندة إليه بظهرها
وصدرها يعلو ويهبط بجنون والخوف يشل أطرافها. وبحركة غريزية مدت
يدها وأوصدت الباب من الداخل فحسية به من تلك الموجة التي تكاد
تصم أذنيها على الجانب الآخر من الباب. جرت نحو فراشها تضم
ساقها لصدرها وتضع كفيها فوق أذنيها وتضغطهما بقوة. لا تريد أن
تسمع. لا تريد أن تشعر. بل لا تريد أن تحيا. ولكن هل تركها تصرخ
هكذا؟ ماذا لو حدث لها مكروه، ماذا لو اختنقت وماتت من فورها؟
لا .. لابد من أن تسرع إليها مهما كانت العواقب التي تعلم عنها
نسفا وعن تجربة كم هي موجهة، وقبل أن تهب من فوق فراشها بلحظة
واحدة سكنت كل شيء. لم تندم فينبى تعلم بأن والدتها قد انتهت
كالعادة من تفريغ شحنة جنون قمر بها يوما ثم تهدأ تماما إلى أن يحدث

ما يفرها مرد أخرى بأي شكل من الأشكال لعمود العصفية تضرب
وحينها وأديها مرد أخرى. خطوط أخرى وسمعت طرقات حديدية على
الباب بصحتها صوت والدقا هادئا بشكل طهرني. هي (رعدنا من
شبابنا:

- والدك يُريدك في غرفة مكتبه !!

نهدت بصحري وهي تبصر سعب من قرائنها مسجنية نحو باب
غرفتها. لقد نصحتها أحد الأطباء الذين أحببت على رؤوفهم عن حادثة
والدقا أن لا تسلمه وتصاع طلاوس أمها التي تسجل والدقا مارال
على قيد الحياة. ولكنها بساعة لم تستطع. شيء ما بداخلها يعجز
وجود أبيها الوهمي بينهما. يرحب بتصدق بقاءه. أنه لم يرحل وبألفها.
ذاك الشيء العاصي بكرو بداخلها كان يوم ورثا هو من جعلها تنوي في
الإصرار على علاج والدقا !

وفي طريقها للخارج مروت بعرفة يوم والديها والله كان الباب
مفتوحا. الطلاء الذهبي أصبح قاتمًا. الفرائش مارال في منتصف العرفة
قائمًا. الاتجاه الذي كان ينمو فيه والدها دائما مرنث بمالعة. والعل
المنزلي الزيتوني اللون أسفل يقع على الأرض ينظر قدمي صاحبه
الدافنين. عطر والدها الرجولي يعبق الغرفة وينسرب خارجها بقوة
لخت والدقا وقد بدلت ملابسها بأخرى ملونة بشكل فبالغ وتظلي

شفتيها بلون قرمزي يتمهل غريب وكأنها تذوق اللون أولاً. مطبّ رؤى
شفتيها بجلل وقبل أن تكمل طريقها سمعت والدتها توقفها قائلة:

- لا تُفضي والدك فهو في مزاج رائق !!

حركت رؤى رأسها بسأم مرهق وتوجهت نحو غرفة مكتب والدها
منصاعة. ولدهشتها وجدت نفسها تتصرف بتلقائية وطرقت الباب بخفة
وكانه بالداخل بالفعل ثم فتحت الباب وولجت وهي مطرقة برأسها
للأسفل. رفعت رأسها ببطء وعيناها تسبقها نحو أركان الغرفة. تستقر
في كل ركنٍ منها جزء من الثانية وكأنها تصافحها بنظرها السابحة. وقفت
للحظات أمام مكتبه الخشبي المطلي باللون البني القاتم وببطء شديد
تُحرك جسدها. دارت حول المكتب إلى أن وصلت للمقعد الضخم
الدوار خلفه. مررت أناملها فوقه وهي تمسح بعض الغبار الطفيف الذي
علق به. هنا كان يضع ساعديه ويستند بمرفقيه. وهنا يعود بظهوره
للخلف ضاحكاً. وتلك المكتبة الضخمة البنية اللون هناك والتي تملأ
جداراً كاملاً من جدران الغرفة الأربعة. معظم الكتب بما عن الطب
النفسى والعلاج الروحاني والتي كان يستعين بها كثيراً لمساعدة والدتها
لتخطي أعراض الوسواس القهري والحلاوس التي تعتربها أحياناً .

سقطت عيناها سهواً على الأصيص المشروخ من المنتصف قائما
والموضوع على الأرض بجوار المكتبة. لا تعلم لماذا ظل والدها محتفظاً
بهذا الأصيص الغريب المصنوع من الطين المخفف والمنحوت على شكل

وجه رجل جامد العينين ويداعل الأصبص سيقاناً ثلاث حيازة كانها
بعض من شعر الرجل ليكمل صورة الوجه الفزع من شيء ما. ربما
احتفظ به والدها لأنه كان هدية من والدها في ذكرى يوم ميلاده.
تذكرت عندما حاولت مراراً وتكراراً إقناع والدها بأن نعيده إلى المكان
الذي ابتاعته منه وتستبدله بشيء أكثر رفقةً وجمالاً ولكن والدها أخبرني
بأنها ابتاعته من رجل مرّ بياهم يحمل عدداً منهم خلف ظهره وجميعهم
بنفس الشكل ولم يمر بعدها أبداً وكأنه جاء من أجل منحهم هذا
الأصبص بشكل حصري ثم يختفي بعدها للأبد.

أكملت رؤى ذورتها حول المكتب الحشوي حتى عادت إلى المقعد
الصغير المقابل له فجلست فوقه خفية واستدارت بجسدها كله تواجه
المقعد الضخم خلف المكتب وكأنها تنظر إلى من كان يجتله يوماً بجسده
العريض القوي البنية وبللت شفتيها بلسانها بتوتر وهي تستشعر أنفاسه
حولها في كل مكان فأغمضت عينيها بآلم قبل أن تكس:

- ليتك هنا بالفعل

ارتعشت إضاءة المصباح الصغير البرتقالي قليلاً وكأنه يخبرها سراً ما
! . وقد كان المصباح الوحيد الذي يضيء الغرفة، فسرت في جسدها
قشعريرة لا تعرف مصدرها ولكنها أجبرتها على النهوض لمغادرة المكان
في الحال. تنحنحت بخفوت وتوتر وهي تنهض واقفة متوجهة نحو باب
الغرفة ولكنه فتح فجأة وضرب وجهها فصرخت وهي تتراجع للخلف

حطوات مُسَكَّةً بِأَنْفِهَا الْمَكْدُومَ قَبْلَ أَنْ تَطْهَرَ وَالدُّهْنُ وَهِيَ تَلْحُ لِلدَّامِ
حَامِلَةٌ فَجْهَانًا مِنَ الْقَهْوَةِ السَّادَةِ وَيَقُولُ عَاقِدَةٌ حَاجِبُهَا بِاسْتِجَابَةٍ

- اسْمِي لِفُكِّ أَبْنَاءِ اللِّهَاءِ فَوَحْيُكَ لَا يَفْقِصُهُ نَشْوَاهَا آخِرُ

وَنَامَتِ وَهِيَ تَضَعُ الْقَصَائِدَ فَوْقَ مِطْحِ الْمَكْتَبِ وَبِاسْتِجَابَةٍ حَتَّى

- هِيَ عَوْدِي لِعَرْشِكَ يَا صَغِيرَتِي. لَا نَعْبُ أَنْ نَسْمَعَ لِأَحَادِيثِ

الْكِبَارِ

رَهْمَتِ رَوْيَ شَوْفَةٍ وَهِيَ تُدَلِّكُ طَرَفَ أَنْفِهَا بِرُغْوَةٍ وَخَرَجَتْ مِنَ الْعُرَّةِ

وَقِيلَ أَنْ تَعْلُقَ الدَّابَّ وَحَدَّتْ وَالدُّهْنُ تَعْلِقُ عَلَى مِطْحِ الْمَكْتَبِ تَدْعِيهَا

وَهِيَ تَنْظُرُ لِلْمَقْعَدِ الصَّحْفِ فَاتَلَتْ بِاسْتِجَابَةٍ فَشَرَفَتْ

- قَهْوَتِكَ عَزِيزِي !

...

- لِمَاذَا تَبْكِينَ؟!

اعْتَدَلَتْ هِنَاهُ فِي فِرَاشِهِ عَلَى جَانِبِهِ الْأَيْمَنِ يَنْقُلِي نَحْوَ هَالَةِ الْمُسْتَلْقِيَةِ

يَحْوَاهُ وَهِيَ تَوَلِيهِ ظَهْرَهَا وَلَكِنَّهَا لَمْ تَجِدْ. كَادَ أَنْ يَشْكُ بِنَوْمِهَا وَلَكِنَّهُ

مِتَّكَدٌ مِنْ سَمَاعِ كَتِفَيْهَا الْمُتَوَاصِلَةِ مِنْذُ نَوَابٍ. فَأَعَادَ سَوَالَهُ مُجَدِّدًا وَهُوَ

يَنْلِيسُ كَتِفَيْهَا فَاعْتَدَلَتْ مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا وَأَدَارَتْ رَأْسَهَا نَحْوَهُ قَائِلَةً

بِصَوْتٍ مُخَفَّفٍ:

- لا شيء، غدا لنومك

نبرة صوتها المقطعة أكدت له بكاءها فتهد بقوة قبل أن يمسح أثر النوم عن وجهه بكلتي يديه ثم قال بنبرة يشوبها الحزن:

- تعلمين أنني لا أستطيع النوم وأنت تبكين هكذا؟

خجل إليه أنها ابصمت ساخرة وقالت بصوت حزين شارد:

- منذ متى وبكائي يمنعك من النوم يا هشام؟!

زفر حائفاً وهتف فجأة وقد اختفى كل أثر للتعاطف معها:

- وهل النوم جريمة هذه الأيام، ألن تنتهي من تلك الاسطوانة أبداً

غطت أذنيها بكفيها بينما أعاد هو زفرته بقوة وهو يحك ذقنه الخليفة بأصابع مضطربة ويعود ليلسقى على ظهره ناظلاً لسقف الغرفة واضعاً كلتي يديه أسفل رأسه بهسب

وقتها لم تكن تعلم هي أن سكونه كان ظاهرياً فقط ولكن بداخله صراع عتيد. لماذا لا تستطيع سماع صوته؟! كلما أراد ضمها دفعته بكلماتها، لماذا ترحل بأفكارها البائسة بعيداً عن نيتك الطيبة نحوها، إنه يهتم. ولكنه لا يستطيع أن يظهر اهتمامه كما يجب ولا يعلم لماذا، كلما حاول تراجع وكأن هناك ما يدفعه بعيداً عنها، هل لأنها هي من تطلب الاهتمام؟، تطلبه بشغف يجعله يخشى التقصير!، تقصير صاحبه لسنوات زواجهما منذ بدايته لا يعرف أسبابه ولا كيف يتخلص منه

صن صمته ولم نخذ هالة ما غشت أن نجد، فسأل دمعها بغزارة أكثر
ومصبت أكثر وعادت توليه طهرها، والهوة بينهما تنسع أكثر فأكثر.
وكان كلاهما العزل ثماناً في جزيرة نائية عن الآخر. هو حتى لم يكرر
لمسه. وكان لمسه الأول لم تكن سوى حركة روتينية لا روح فيها، إنه
لا زال يسمعها تكى. فلماذا لا يخرجها من عذابها ويجذبها رغماً عنها
بين ذراعيه لتستكين. مؤكداً لها بأنه لا يسأل عن مكانها من باب
الواجب وفقط كما تظن. لماذا لا تبصر؟. إنها تستظر إصراره لشعر
بأهيتها لديه. نعم سندفعه ونهش بعدم رغبتها في الاقتراب منه. لكن
بداخلها تصرخ فيه أن لا يستمع إليها. أن يضمها ويمسح شعرها فعلننا
جده وملكيته هذا. لماذا لا تتحرك يا هشام؟. لماذا. إن لم أخبرك بسبب
بكاني تتركني وتصمت؟.

أنا لا أريد الحديث فلربما لا أعرف سبباً حقيقياً لدموعي. فقط أريد
أن أشعر بدفء فريك. بلهفتك على ضمي ولو بالقوة. أريد أن أنام
على ذراعك لا أكثر. أنتظر فقط أن تصر. فما الذي يدفعك بعيداً
بكل هذا البرود؟!

شعرت بكلماتها التي تدور بداخلها تتعاضد أكثر فأكثر مع تواصل
صمته. تحننها وتنع عن رثيها الهواء. بدأت تتنفس بصعوبة واحتقن
وجهها وكان هناك من ينفث بوجهها نيراناً مشتعلة، الحنق يغلي بصدرها
يكويها والفصه المستنة تتلوى يحلقها كالحية. وبدون مقدمات خفضت

جالسة في محاولة ضعيفة للتنفس بسهولة أكثر، لحظات أخرى مرّت وهو يكفّي بالنظر نحوها دون أن يُحرك ساكناً مستمعاً لأنفاسها العنيفة خارجها. كل ما فعله أن قال برتابة وهو مازال قابلاً في مكانه:

- هل أفتح لك النافذة؟

صغيع كلسانه رمى بها بين ثلوج عدم أكثراته بعنف فتجمدت للحظات قبل أن يفجر بركاناً بأسها بوجهه كالعادة. وجدت نفسها تحفّ باكية بلا مقدمات وهي أقوى من فوق الفراش على ركبتيها:

- لا. لا أريد منك شيئاً، غداً لأحملك السعيدة. غداً لصمتك المطبق هذا. لا تنعب أحلامك الصوفية لأحلى

ما إن انتهت حتى شعرت بالهز للدهاء عنيقة مؤلمة مما دفعها للسكون ثماناً لعلّ اللمّ يهدأ في نفس الوقت الذي هبّ فيه هشام جالساً وهو يستنفر بصوت مزيج وتدسج وجهه بعنف ثمراً أنامله فوق شعره القصير للغاية عدة مرات. لا يعلم ماذا يفعل. لقد سألها وهي لم تجبه فلماذا تصرخ هكذا؟!

طُرقات صغيرة على باب الغرفة جعلها تتحمل آلامها وتنهض مسرعة لتفتح الباب لتجد خلفه ابنتها تفركان عينيها بقبضتيهما وقد استقيظتا فرعيتين على أثر صوت صراخ أمهما الذي عبرت حملاً إلى غرفتيهما كما يحدث دائماً. ضمتيها في صدرها وغادرت معهما لتقضي الليلة بينهما تاركة خلفها زوجها جالساً مكانه دافئاً رأسه بين كفيه وقد

شدت طافد هذا اليوم. خطت قبلة موت قبل ان يصلها صوت
شجرة الموصل وكان شاة لم يكن. يا لمرحال !

- لماذا تبكين ؟ حالة .. حالة !

انقضت حالة من شرورها لنجد دموعها غداً وحيتها وهشام يهرى
قليلاً وهو يسألها عن سبب بكائها، انقضت بعق وهي تعلق عينيها
وتضعفهما بقوة. لقد شردت في مشهد تكرر كثيراً فيما مضى، نكي
فيسألها - ان كان مستيقظاً - عن سبب بكائها ماذا اياها لعاطفا
رونسيا متكرراً. فيجدادلاً ثم صراخا ياكيا يكاد ينع عنها الهواء وأجراً
تذهب لسان مع الاطفال ليعود هو وسام وكان شاة لم يكن وعندما
يستيقظ صاخا يذهب لعيله سريعاً دون ان يكاف نفسه عاء
الاطمئنان عليها. هذه هي عادته عندما يتساجرا. تنحسها حتى يعود من
عمله ثم يبدأ بمصاقتها معتاداً ويوعد بقطعه على نفسه بأنه لن يكرر ما
حدث وسيهتم في المرة المقبلة. وسرى !

اما الآن وبعد أن اكتشفا مرضها الخبيث تغير الوضع قليلاً. أصبح
يهتم. يحاول تعويضها عن إهماله لها لسنوات وهو يعلم أنها ستفارقه
للأبد. التفتت نحوه تعلقو شفيتها ابتسامة شاردة لتجيبه مطمئنة إياه.

- لا شيء. أنا بخير

ضمها قليلاً وهو يتساءل بقلق وإلحاح:

- لقد كنت تبكين بقوة ولا تستحي لدمعائى المتواصلة

راقبت نظرة الشفقة المشوبة بالقلق فى عييه وسؤال متحرر يدور
بقلبيها. أجب أن أموت يا هشام لنبدى اهتماما في؟ ولكنها معه غيرة
وهي تطبق فكيتها بارتعاش قبل أن ينطلق لسانها به. وملا بفيد العصب
الآن؟؟ لا وقت لديها لتفضيه فى تعذيب نفسها ومن خوفها يعتب
أجوف منتظرة أعداءا واهية قانسة على الشفقة فقط

وجدت يدها ترتفع تلقائيا لترت على يده الساكنة فوق كفيها
بسامح قائلة:

- ربما كنت أحلم. لا عليك غدا لنومك. سأمض لأصلي قليلا

نحست متهدلة الكتفين وقبل أن تصل لباب الغرفة سمعته يقول من
خلفها:

- لا تتأخري. سأنتظرك

أومات برأسها دون أن تجيب وخرجت من الغرفة مغلقة بانها خلفها
موقنة بأنه لن يفعل!

استيقظت هالة صباحا وهي تشعر بإرهاق بالغ يسري بجميع أنحاء
جسدها ورغم ذلك نحست بصعوبة لتستعد لتجهيز طفلتيها لتذهب
نحما لدار الروضة كما هو المعتاد يوميا. بحثت عنه فى أرجاء الشقة فلم

تجده. لقد غادر إلى عمله باكراً جداً. وفي طريقها إلى الطابق الذي دروسه
وهي تُسك بطفلتيها بعناية وحدث حمامها العجوز نخرج من شفتي
وتنمو على غلق الباب جيداً ثم تسحب وشاحها المثلق ذلك لتعطي
مقدمة شعرها بعناية ثم تخرج بحفظة جلدية سوداء من جانب حمام
المسندل على جسدها باستقامة لتدس لها الحذاء وتعلق سحاما خرم
وكان بداخلها كبر ثمين. ألقت عليها حالة تحية الصباح فالتفت إليها أم
هشام وهي تغيب باعتبارية وتنحن بصعوبة لقبل الطفلين نحو مربية
على شعرينها قبل أن تعتدل بصعوبة أكبر وهالة تسألها عن وجهينها
باكراً هكذا. فقالت أم هشام وهي تضرب الأرض بخفة بعكازها:

- ياسين جارنا أخبرني منذ أيام عن مركز للعلاج الطبيعي. فيه طيبة
تعالج الحشونة بالحجامة ولكنها لا تعمل إلا صاحبا فقط

- ياسين الممرض؟!

أومات أم هشام برأسها بإيجاب قبل أن تقول مردفة:

- نعم هو. إنه يمدح فيها بشدة وفي زوجها الدكتور بلال، وأكد لي
بأن شفاء ركبتي على يديها بإذن الله

مطت هالة شفيتها بتفكير وهي تعرض خدماتها قائلة:

- ما رأيك أن تنتظري حتى أعود لأصطحبك إلى هناك؟

نسبت أم هشام وهي توافف الأوصاف والمرضى اليائسين على ملامح
هالة المنعبة ثم قالت:

- لا داعي بالبيتي، المركز لا يعد عن حد كثير، فقط صعد دفاي

نقلت هالة رفض حمامها بسعة صدر فهي لم تكن مفعسة من
الأساس، نعم هي لود مساعداً ولكن تلك المشاعر الجسدية التي
ربطتها بحمامها لم تعد عليها بعد. لقد كانا فقط وفار منذ شهر قليلة
فقط، ولكن فجأة بعد أن علمت حمامها تعرض هالة انصبت لبدلت حمامها
وصارت لها أمما زووما، أغدقت عليها من حمامها وكانها تودعها، وبعد أن
كانت نظراتها لها في السابق تحمل عداوية في طياتها، صارت نظرات
مشفقة رحيمة. فجأة تذكرت أمما بسيطة وأن لا أهل لها ففكرت أن تكون
هي أمها وتحيطها بخنان العائدة، أمما لا ترحمهم إلا بعد علمها بموعد
ذهابهم!!، وكان الموت يحتاج إلى تحديد موعد لتناق.

انتهت والددة هشام بارتياح وهي تضيق عينيها بتركيز وتعديل من
وضع نظارتها السمكية القابعة فوق عينيها وقد انتهت للتو من قراءة
اللائحة الكبيرة لمركز العلاج الطبيعي الذي لا يعد كثيراً عن منزلها، هو
بعد تقريباً في نفس الحي البسيط. دلفت من باب المركز وقد وجدت ما
أبلغها به ياسين من قبل متجسداً أمامها، صالة استقبال كبيرة مزودة
بالنساء اللاتي يرغبن في العلاج بالحجامة في هذا الوقت من الصباح

وذا كنت تعرف حلف لداثة أيوب لا تعلم أنهم وجهتها ومكتب عتيق و
مواجهة الباب ثامنا يتألف خمسة مع الدفتر الوحيد الموضوع فوقه
والقد استسحت والددة هشام أن هذا المكتب ل يأسين يدور به أصلا،
المريض كما هو الحال. تلفت بحية ويسرة باحثة بعينها عنه حتى
وجدته عائداً من حجرة حامية صغيرة لم تلاحظها من قبل ويده كوب
من الشاي الساحر تتصاعد أخرته يساقى لا ينتهي، وما إن رآها حتى
أقبل عليها بانسامة مريحة فانلا نضوت

- اخمد الله نيك قد أنيت باكراً يا أم هشام. لقد حشرت لك أول
كشف. الدكتورة غير وصلت ودخلت حجرها للكو

أخرجت والددة هشام حافظتها الكبيرة وهي تسأله عن ثمن الكشف
ولكنه وضع يده سريعا على حافظتها ليعنيها قائلا

- الدكتورة غير لا تأخذ أجراً على عملها هذا يا حاحد. فهي قلب
ثوابه لحمايتها رحمها الله

رفعت والددة هشام حاجبها بدهشة متعجبة قبل أن يشير إليها
ياسين بالدخول وهو يتقدمها بخطوة واحدة. وعندما دلفت داخل
حجرة الكشف وأغلق ياسين الباب خلفها بحرص. استقبلتها غير
ناهضة تجاهها من خلف مكتبها الصغير القابع في زاوية بعيدة عن باب
الحجرة بانسامة مشرقة لتأخذ بيدها لأقرب متعده أمامها .

عاينت والدة هشام عبير وغطاء وجهها الذي ألفت به خلف رأسها بانافة وهي تقدر عمرها بأنها لم تتجاوز العقد الثالث بعد من عمرها وفتحت بفضول:

- أنتِ الدكتورة عبير؟!

ضحكت عبير ضحكة صغيرة خافتة وهي ترى نظرات الفضول المصحوبة بالدهشة التي تطل بضراوة من عيني المرأة وقالت بتفهم:

- نعم أنا هي، ولكنني لست بطبيبة

وعندما رأت حاجتي والدة هشام يتعقدان وتغضنت زوايا عينيها بأنعام. قالت شارحة:

- زوجي الدكتور بلال طبيب وهو في الأصل صاحب هذا المركز للعلاج الطبيعي ولكن عمله هنا لا يبدأ إلا بعد صلاة المغرب بقليل، وقد منحني دورات عدة في العلاج بالحجامة وأجازني فيها.

تنفست والدة هشام الصعداء وقد اطمأنت بعض الشيء وهي تسترخي قليلاً ثم بدأت في شرح ما يؤلمها وهي تستند بكفيها على ركبتها وعبير تستمع إليها بانصات، وهي تشرع في العمل على الفور بأصابع مدبرة خيرة، بينما والدة هشام تطلق العنان لذكراعتها وهي تحكي لها باستفاضة عن شبابها وصحتها التي ولت في تربية ولدها وابنتها التي تقطن بعيداً عنها مع زوجها، وكيف جاءت زوجة ابنها لتأخذه منها

هكذا دون تعب. وأخذت تقص عليها وكأنها تعرفها منذ زمن طويل
المشاكل التي دبت بينهما حتى اضطر هشام إلى تأجير الشقة الشاغرة
في الطابق الذي يعلوها لفصلهما عن بعضهما البعض .

استثقت عير من حديث المرأة عدم ثقلها لزوجة ابنها فقالت
وهي تتابع عملها بتلقائية:

- اتعلمين يا خالتي. زوجي الدكتور بلال وحيد أمد. وكنت أوهيها
في البداية ولا أعرف كيفية التعامل معها. ولكنها احتضنتني كأبنة
لها وصارت لي أما ثانية. هي من علمتني كيف أعمل لخدمة الناس
دون انتظار مقابل وساعدتني في تربية أولادي الأربعة بكل حب
وصبر. وعملت معي هنا ودرستني كثيرا حتى أصبحت خيرة في
هذا المجال. وعندما توفاه الله افتقدتها كثيرا وبكيتها أكثر من
ولدها نفسه. وكلما أسجد بين يدي الله في صلاتي أتذكرها في
دعواني أكثر من والدتي الحقيقية .

تهتدت والددة هشام وهي تقمص شفيتها وتترجم على الفقيدة ثم
قالت وهي تحرك رأسها وكأنها تدافع عن نفسها:

- والله يا ابنتي لقد عاملتها بالحسنى. لولا تأخر حملها لسنة كاملة
ورفضها الذهاب للطبيبة لمعرفة سبب تأخر الحمل. فصارت
العلاقة بيننا سينة للغاية. وحتى بعدما حملت بطفلتينها لم نقصافي

أبدًا إلا بعد أن علمت بمرضها المصيب وبأن موشكها على نص
رجلها .

رفعت غير وجهها مضدومة. سبطل الموت هو الخليفة الوحيدة في
حياتها. تؤمن به وتنتظره. وبالرغم من ذلك بضدما عندما تشتم راحة
حولنا. أطرفت برأسها. تفرح حدود. وتحرك عطفها بنية وبسرة بشقة وهي
تتخيل كيف ستفارق أنا ما أطفأها في مثل هذا السن المذكر جدًا وهي
على علم بذلك. فهي أم وتذكر كيف هو شعور الأم عندما يعرض
الأمر بمستقبل أطفالها. لانت ملامح غير سليم لقدر الله. مسنة

- لا حول ولا قوة الا بالله. عافها الله من كل سوء. وحفظها
لأطفالها

تهدت والدها هشام ومسبب للحظات ولكن صحتها لم يدم طويلا
وعادت لتستكمل حكيها حتى كادت غير أن تنتهي من عسلها. لم
يوقفها إلا رنين هاتف غير الذي أصر أن نجيبه بإخاخ. وأقيمت المرأة
بانصات فضحه تركيز ملامحها الشديد معها وهي تتحدث إلى زوجها
بخفوت ووجهها يتلون باللون الوردي الغيب. وما أن لاحظت غير
تصبتها عليها أخت المكاملة سريعا هامة له بخفوت:

- سرى حكاية ضميرك هذا فيما بعد. لدي غسل الآن. مع
السلامة .

أنهت المكالمة وهي تحيد بنظرها عن والددة هشام التي رفعت حاجبًا واحدًا بإدراك مصطنع وكأنها علمت ما دار بينها وبين المتصل من تورد وجهها، وقبل أن تعاود عبير إنهاء عملها قالت بابتسامة موضحة:

- إنه زوجي

عادت المرأة تنهد مجددًا وهي تهر رأسها بثقة في تخمينها السابق ثم عقيبت وهي تعتدل في جلستها بحكاية أخرى عن إحدى مشاكل ولدها مع زوجته بسبب عدم مهاتفته لها ليطمئن عليها خلال فترة عمله الذي تدوم اليوم كله وضيقها بمكالمته الوحيدة التي يفعلها فقط وهو عائد من عمله ليسألها عن المشتريات الضرورية للمنزل

ضحكت عبير بخفة وهي تنهي عملها وتنهض قائلة:

- أنا وزوجي حالة عاطفية خاصة، من الظلم القياس عليها، ولكن أصدقك القول مكالمته تلك تمنحني دفعة قوية جدًا لاستكمال مهامى اليومية بحماس متدفق

ارتكرت والددة هشام على عكاظها ناهضة وهي تُتمتم غير معجبة بما سمعت للتو:

- بنات آخر زمن

احتضنت عبير كتفيها مودعة إياها وهي تذكرها بالتعليمات الواجب اتباعها بعد الحجامة، ثم تحركت والددة هشام نحو باب الحجرة ببطء

مطرقة برأسها وكأنها تفكر بأمر هام وما أن أمسكت بمقبض الباب حتى
انفتحت فجأة تجاه عير متسانلة:

- ألا تدلينني على عروس مناسبة لظروف ولدي هشام

اتسعت عيني عير بدهشة مأخوذة وهي تئنف غير مُصدقة:

- ماذا ؟!

أدخلت حالة طفلتيها إلى دار الروضة. عند الباب الخارجي تشير
إليهما بابتسامة وعندما نساقتا إلى روى ونعلمة أخرى كانت تقف
بجوارها. انحت روى إليهما مضمضة جسديهما الصغير بين ذراعيها
وعندها استمعت إلى بدار حالة لها وهي مارلت واقفة عند باب أولياء
الأمر الخارجي:

- روى !!

انفتحت روى والمعلمة الأخرى نحو الصوت. وخطفت روى نظرة
مرتبكة إلى حالة التي كنت تشير إليها بابتسامة صامتة متسانلة عن
تجاهلها فأشاحت بوجهها وكأنها لم ترها، هاربة مما تتوق إليه!. بينما
أخذت المعلمة الأخرى الأطفال إلى الداخل، تبعتهما روى مُغلقة الباب
الداخلي للدار خلفها وكان شيئاً لم يكن !.

تلاشت ابتسامة هالة وزاغت نظراتها مفكرة، هل قررت رؤى الرضى
لذا لا تريد أي تواصل معي ولو حتى بنظرة؟!، تفضت الفكرة عن
رأسها سريعا وهي تضع خيارات أخرى، ربما انشغال رؤى في بداية
يومها بالأطفال هو السبب في تجاهلها لها !!

وعندما ذهبت لإصطحاب الأطفال في نهاية اليوم فعلت رؤى نفس
ما فعلته في بدايته، فتجنب الحديث معها منصرفا بخطوات مضطربة
بعيدة عنها. عابستها هالة من الخلف وهي تلاحظ مشيتها المتوترة ونحوها
الشديد وملابسها الغير منسجمة حائرة بداحلها عن تلك الحالة المذوية
الواضحة على رؤى، ترى هل تعاني من اكتئاب ما، وما السبب؟، هل
هو عرضها الذي عرضته عليها بين المقامر "أمعصلة هو إلى هذا الحد؟

ولكنها لم تياس، ظلت منتظرة بالحدقة الصغيرة الداخلية التابعة
لروضة الأطفال حتى رأت رؤى تخرج من الدار نعلقة حقيبتها فوق
كتفها، مُشبهة بحزامها الجلدي كأنها توازن منكبها. تخضت هالة على
القوز وهي تنادى على طفلتيها لتأتيا إليها وهما تصانعان لهوا مما جذب
عيني رؤى إليهما فتوقفت خطواتها دفعة واحدة وقد أيقنت بأن هالة
مازالت تنتظرها بإصرار. تلك المرأة لا تستلم أبدا، حتى الوهن والضعف
البادين عليها لم يجعلها تتراجع عما تريد. هل معرفة موعد الموت كاف
ليمتنع الانسان بقوة لم يكن يملكها من قبل وكأنه لم يعد يهاب شيئا

بعدد. بل يصح الخوف في ذاته كلمة واحدة لا حدة فيها لخصي من
المعاني أمامه ولا يبقى سوى النظر موجهة إليها لوجه

تصحت رؤى وهي قرب يوحىها من هالة التي تدور فيها
بالتسامة صعبة وحطوت وهذا. لم تستطع صد تلك الأسلة في
عينها. ولم تكن تلك الأحداث. لا تعلم ماذا تعترض ولا من قرب
رما لأنه لا ج لها أبل حميد في نور حياتها سببا إذا وقعت والدتها على
الانفصال لشدة أخرى حالة من ذكريات معدية كما أحررها الطبيب
تشعر أن الملاحح حذو شجرة صالحة فذلك هو أحوال يكفر من حمل
والدتها على ترك منزلهم !

- حسد. لو كان غرضي الذي غرضه عليك من قبل هو سب
تحاشيك لقائي فاعتبره كأن لم يكن

رفعت رؤى عينا وقد صدمتها عبارة هالة القوية ولعل أن عينا
تغيرت نبرة هالة وأطل الخفاء من نظراتها الطويلة وهي تقول مستدركة
بحر:

- لكنني لن أتنازل أبدا عن صداقتنا التي لم تبدأ بعد

سارت رؤى بجوار هالة والمضول يكاد تنطق به خطواتها المتوعدة.
وفجأة قررت البوح بما يعتل بصدرها بتلقائية ودون تخطيط فوقفت
واستدارت نحو هالة متسائلة بفضول:

- هالة، التعب والوهن يظهران عليك بوضوح ورغم ذلك صممت على المشي معي حتى منزلي فلماذا؟!

رفعت هالة كتفها وهي تستكمل سيرها فتجبر رؤى على اللحاق بها وهي تقول بلامبالاة:

- لاشيء، أود أن أتعرف على مكان سكنك فقط ونتحدث قليلاً أثناء سيرنا، أما التعب والوهن فهما يلزاماني دائماً لعدة أيام بعد جلسة العلاج الكيميائي فهي مرهقة جداً .

زمت رؤى شفيتها بتعاطف ثم تابعت بفضول أكبر على غير عادتها:

- هل حقاً ليس لك أخوة أو أقرباء كما قلت من قبل

ظهر شبح ابتسامة على شفتي هالة وأطرقت براسها قليلاً قائلة
بشروع:

- الأقرباء والأخوة يا رؤى هم من تجدينهم دوماً متى احتجت إليهم، أما من لا يدرون شيئاً عن عذابك، عن معاملة زوجك لك، عن حاجتك إلي عائلة، إلى وجودهم حولك ليشدوا من أزرعك إذا مالت بك الدنيا، عن شكوى تودين أن ترميها بحجر أحدهم ليحتويك بعدها بتفهم فتعودين بعدها لحياتك وكأن المعاناة لم تكن، من لا يفعلون ذلك يا رؤى حتى لو علموا بموتك فلن

يفعلوه مع أطفالك، هم ليسوا بأقرباء، هم فقط رحم، لا تقطع
صلتنا به، فقط ابتغاء مرضاة الله .

شغرت رؤى بكل كلمة ألقينها هالة للنو على مسامعها، لا لم تشعر
فقط، بل تعايشت معها بكل جوارحها حتى الغصة التي تخنق كلمات
رفيقها تذوقتها واستشعرت وخزتها بخلفها، وتسانلت بداخلها، ترى هل
تواجد أقرباء من حولنا له أهمية كبيرة هذه الدرجة؟ هل لو كنت
أمتلك أحدهم كنت سأستعين به على علاج والدتي وربما تغيير حياتي؟



استندت هالة إلى شريح زوجها وهو يأخذها إلى أحد المقاعد الخشبية
المطيلة بجانب ذلك الطوار القريب منهم يداخل تلك المشفى الحكومي
في انتظار دورها بالحسنة علاج كسارية أخرى كما حدد لها الطبيب،
حاولت هالة كنم نفسها قدر المستطاع فامتنعت بجواره كومة من نقايات
المشفى التي تلتفي في ساحبها الخارجية بإهمال دون مراعاة هدف المشفى
المنطقي وهو علاج المرضى لا جلب الأمراض إليهم، أخذ هشام
يتفحص تذكيرة العلاج مجددا بينما ركزت هالة بصرها وسمعتها من تلك
المجموعة التي تقف بجوارهم وقد تباينت أعصارهم ما بين عجوز وشاب
في مقبل العمر وآخر ما زالت بمنصفه، جذبا حديثهم وكل منهم يحكي
وجعه وآلامه، وكان مشاركة الآلام تخفف بالفعل من شدة وطأنا،
عكس السعادة التي تزداد وتكبر عندما نتشاركها مع الآخرين، كان

الرجل العجوز بشد على كف زوجته بداحل كفه وكأنه يدعسها ويوكه.
لها أملة أحبل نظراته دوماً وهو يتحدث إلى المرأة الأربعينية التي تقف
مواجهة له قائلاً لها وهو يشير لزوجته:

- لا تبأسي وتعلمي الصبر من زوجتي. هل رأيت يوماً امرأة مصابة
بذاك المرض وفي قصة الصبر والثبات مثلها. أشعر أن المرض
سيبأس منها ويرحل دون رجعة. كيف له بمواجهة تلك المخاربة!

ابتسمت زوجته العجوز وهي تنظر له بامتنان وتنتفس بمجهود بالغ.
ربما هي تعلم أنه يسعى إلى ابتسامتها أكثر من غمّه عن علاج مريض في
ذاك السن الطاعن.

راقبت حالة البسمة التي علت وجه الشاب الأحمر الطويل الذي
يقف بجوارهم والأمل الذي رسم خطوطه في مثاليته وهو ينظر إلى الرجل
وزوجته بتساؤل وكان لسان حاله يقول:

- لو كانت تلك المسنة قادرة على هزيمة المرض فليس باب أولى أن
أفعل أنا

عادت حالة بعينها إلى زوجها المنشغل بالنظر إلى نحو المشفى
الظاهر أمامه وانخفضت نظراتها إلى يديه المعقودتين فوق صدره ثم
تحركت ببصرها إلى يديها الخارجتين فوق قدميها وهي تصانل عن ماهية
الدفء الذي يسري الآن بكف المرأة العجوز. ترى ماهو شعور الدفء
ذاك، ماهذا السر الذي سقتل دوماً تجهل معناه، لماذا يظن هشام بأن

الاهتمام فقط في مصاحبتها لجلستها العلاجية. وهو صامت. متقاعد.
شارداً في الفراغ، متجنباً الوجه. خاوي النظرات وكأنه يتبع منها صرخة
ليضع عوضاً عنه يأسه وخوفه من المستقبل. ألقت هشام إليها فحاة
وشاهد نظراتها متصكرة فوق يديه بشروود. اقترب منها قليلاً. راقبت
هالة يده وهي تتجه نحوها. هل فهم أخيراً ماذا أحتاج. هل سيدعني
الآن؟. سيمسك بيدي. لا .. سيضم كفتي بساعده إلى صدره. إلا أنا
أغمضت عينيها بيأس عندما استند بيده إلى ظهر المقعد المتهاالك من
خلفها وهو يميل نحوها قائلاً بغيظ:

- تلك الممرضة هناك مستفزة للغاية. سألتها أحدهم عن شيء ما
فصاحت بعصبية دون مراعاة كهيولته ولا مرضه الواضح عليه
والشمس اخارفة الى نصف جيفاً أسفلها منذ ساعات وكأننا نعمل
خدم لديهم هنا، إحمال !!

رحيل

هل هو الخريف حقا أم هي فقط التي تشعر بأنها نحيب فصولها الأخيرة من عمرها. هل تساوي الليل والنهار جاء مصاحبا لهذا الموسم أم أنها هي التي ترى بصورتها انعدام الزمن في المكان الذي سيذهب له قريبا؟ حالتها تزداد تدهورا وأصبحت حبيسة المنزل. ورقة شجر باهنة سقطت من مكان ما مروراً بناذقها. ألصقتها الرياح القوية برجاجها لثوان ثم عادت تكمل رحلة سقوطها للأسفل بعد أن مسحها إشارة بأن تستعد للذهاب!.

تنفست هالة بعنف ومدت يدها نحو غرة الشعر المعلقة على جبين ابنتها جنى الثالثة على قيسها. واضعة يدها الصغيرة أسفل رأسها باسترخاء وشفقتها منفرجتين قليلاً تنفس من حلالها كعادتها. وقامت بتسويتها بخنان وهي تنحس كل حصلة منها ببطء كمنح بوعنة أناملها خشية من أن توقفها ثم مدت يدها الأخرى نحو لجين عن يسارها والتي تنهد دانتاً تنهدات ناعمة رقيقة أثناء نومها وكأنها تعلم بشيء سعيد على الدوام. لمسة يد هالة فوق جبينها جعلت حاجبيها الصغيرين يتعقدن قليلاً بينما زمت شفيتها ثم عادت ملاصقتها تسرخي وتسبح في حلمها من جديد. ترى هل مفارقتها لها ستجعلها تتأخران في النطق أكثر مما هما عليه؟ هل ستسهلان الأمر على رؤى

كأنم بديلة؟ أم ستغير مشاعرها نحوها بعد أن تسكن معهم بشرى
المنزل وتنام مكان والدتها ويعتادان عليها أكثر بكثير من كونها مجرد
معلمة؟.

- هل أنقلهما إلى غرفتهما الآن؟

قاطعت عبارة هشام خيالها عن مستقبل لن تحياه. فالتفت نحوه
قائلة بحمس وهي تحرك رأسها نفيًا بشرود تعادله دون أن يعادها:

- لا، أريدكما بجواري الليلة

أوما برأس موافقا وانحنى تحذعه نحو نهاية الفراش ليسحب غطاءا
خفيفا لنفسه مستعدا لتغطاء ليلة بغرفة بناته. فاعتدلت هالة على الفور
جالسة في مكانها وهي تقول بمرارة خفيفة:

- هشام، أين هما

لم ينتبه إلى نبرة الرجاء الدافئة في صوته ولا إلى نظرة عينيها التي
تحتوي وجهه وكأنها تطبع بداخل مقلتيها ملائمة الطفولية بشوته
القسمية. لم يفهم أنها نظرة وداع تحرق قلبها شوقا له .

اعتدل بعد أن حمل الغطاء وتقدم نحوها بانتماسا ثم انحنى ثانية يطبع
قبلة على شعرها هامسا:

- لا داعي. السرير لن يكفيننا جميعا بسهولة. ولا أريد ازعاجكم
بتقليباتي الكثيرة. تصبحين على خير

عندما التفت لرجل أمسكت بكفه وهي فاستدار لها ولمسة انسية
لم يستطع قراءة نظرها المتوسلة وهي تقول بصوت مرتجف قليلاً
- أخشى أن تكون هذه آخر ليلة لي ..

قاطعها وهو يمسك يدها بحدود ويرفع وجهها نحوه قليلاً تنطق بعد
الحديث بما معها عندما تقول مثل هذه الكلمات :

- لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام مرة أخرى. أنت بخير
وستتحسن مع العلاج صدقيني. أتركى هذه الوسواس جانباً الآن
وارتاحي فحلمة العلاج اليوم صابحاً كانت ملقاة عليك للعبادة.
هيا اخلدي إلى النوم

قبلها مرة أخرى واعتدل مغادراً للغرفة إلى غرفة سارة، التفتت هالة
إلى المنضدة الصغيرة بجوار السرير يتذكر إلى أن تنهدت في النهاية وقد
حسنت أمرها. مدت يدها إليها وسحبت أحد دفاتر اللغة العربية
الخاصة بابنتها حتى، ثم سحبت قلماً كان بجوار الدفتر وهي تنوي كتابة
رسالتين منفصلتين .

تنفست بقوة وعميق لتكبح دموعها محاولة تثبيت القلم الأزرق بين
أصابعها والتي اعتادت ابنتها لجئن عض خاصرته بأسنانها وبدأت تخط
بيدها المرتعشة الرسالة الأولى وقد كانت كوصية وتذكار منها إلى ابنتها
الصغيرتين. كانت رسالة صغيرة وموجزة وبها مرح وبهجة في محاولة بانسة
للتخفيف عنهما عندما تقومان بقراءتها يوماً ما أو يقرأها أحدهم
عليهما. وفي بداية كل سطر منها حرصت على أن تكرر نفس الجملة

مرات ومرات " سأكون حولكما دوماً، وكعادتي سأنام برفقكما دون أن تريايني".

أنهت رسالتها الأولى وانتهت معها تلك الصفحة التي قلبتها ليقلب قلبها أمام صفحة جديدة نازكة صفحة خالية بينهما كعادتها دائماً للمكتابة في دفاتر بناتها الصغيرة. تحرك القلم بمداد من قلبها مستعداً لكتابة الرسالة الثانية والتي لن تستطيع أن تكذب بها وتظهر البهجة كما فعلت في الأولى، فقد كانت موجبة لمن امتلكها ولم تملكه. لزوجها النائم بالغرفة الأخرى نازكا رباح الوداع تعصف بقلبها الوحيد وجسدها الراحل.

زفرت مرة تلو الأخرى وقد فقدت السيطرة على عواقلها النازقة وهي لا تعلم ماذا قررت أن يكتب له. هل تؤنب أم تعاتب برفقة؟. ألا تكفي المسؤولية التي ستقع على عاتقه فور رحيلها؟. لماذا تشعر بتلك الطاقة العاضية والمتضاربة بداخلها وكأنها تريد أن تشتت به وفي نفس الوقت تشفق عليه مما سيلقى. ويتردد كبير وبدون تخطيط بدأت تكتب:

- زوجي الحبيب

ثم تطلسمها بتوتر حتى كادت الورقة الرقيقة تتمزق بفعل رأس القلم المدبب، انطلقت الزفرة الأخيرة وقد قررت أن تترك العنان لقلبها وقلبها مغا يكتبان ما يريدان، وما شأنها هي؟

ما إن دخل هشام غرفة بناته حتى ارتقى على أول سرير قدامه وأغمض عينيه وهو يشعر بعظامه تأن بشدة من فرط الإرهاق الذي يشعر به، اليوم كان شاقاً للغاية، صباحاً في جلسة العلاج معها ثم أعادها إلى المنزل، وانطلق إلى عمله وكأنه يجري خلف الوقت ليلحق بعضها منه قبل أن يُخصمه له اليوم كله، فصديقه في الشركة وعده بأن يعود عن غيابه صباحاً قدر المستطاع، عمله كمحاسب دقيق جداً ويحتاج إلى تركيزه الذهني الكامل، وهذه الأيام ومنذ أن تدهورت حالة زوجته وهو مشغول بكل ما تحصل هذه الكلمة من معان، الخطأ الواحد في رقم واحد ربما يكلفه فقدان وظيفته على أقل تقدير، انتفض فجأة من سريره عندما ضربت رياح قوية زجاج النافذة المسوحة وهو يشعر أن أطرافه تكاد تكون تجسدت على أثر تلك الصدمة، نسبح وهو ينهض ليقفل النافذة تماماً موضحاً نفسه على سرعة انفعاله هكذا وكأنه طفل صغير يتألم وحده، عاد إلى نومه وهو يتسوس متذكراً سحرية والدته منه عندما انتفض أمامها هكذا في يوم من الأيام على أثر صدمة مفاجئة لباب الشقة وقالت له بسحرية لاذعة " احضر لك طاسة الحضة " !

من المستحيل أن ينسى ذلك اليوم مادام حياً، وكيف ينسى عودته من الخارج وملابسه يعلوها الغبار مكوناً طبقة رمادية رقيقة باهتة فوقها وقد دفنها للتو، دفن زوجته، صورة جسدها الملفوف في الكفن وأخوته الرجال يحملونه ويدخلان به القبر لا يمكن أن يفارق تخيلته أبداً، هل هذا هو جسد زوجته حقاً؟

هل بنصت إليهم وهم يدفعونه ليخرج من ساحة القبر ويتركها وحدها، تبنت أول لباليها في قبرها المظلم، بلا رفيق؟!

و هل كان هو هذا الرقيق الذي يخشى عليها من عدم وجوده عندما كانت نيت في بيته؟ وفي عرقته. وعلى فراشه؟ هل شكل القمر فارقاً سوى في الظلمة فقط؟!

هالة التي كانت تملأ البيت سعادة في بداية زواجهما ثم انحلت ضحكاتها شيئاً فشيئاً وتراجعت صحتها ببطء، حتى فارقتها نون أخيراً وصارت جثة متحركة، ثم هامدة!

كيف ينسى عيني والدته الموردة من أثر الكاء وهي تغمض أسنمة في صدرها بشغف. وقد أصبحنا يسمي الأم. كيف ينسى تلك العيون الخائرة وهم ينساقون عنها بحروف صغيرة وبطرات صاعدة - أين أمي؟ كيف ينسى ظهور المرحي وكأنه يسعد خيال المسؤولية الطفلة والمجددة عليه؟

وكيف ينسى يد أمه الممدودة إليه يدفئ صغير لإحدى أسنمة تحرق بأن زوجته تركت له رسالة. وإن كان يستطيع سيات كل هذا مع مرور الزمن. فكيف بالله أن ينسى ما كتبه له في رسائلها تلك الكلمات مذبوحة وذائخة. تلك اللحظة شعر بأنه لا يقرأ الكلمات بعينه بل يسمعها بصوتها الباكي. وكأنها تفسس بقلبيها فوق الأوراق. تذكره. تسأله، ترجوه، تقسو عليه. تكيده وتبكيه. تحبه. وتناديه. ثم تهدده!

- هشام، كتبت هذه الرسالة في آخر ليلة لي في بيتك. هل تذكرها؟. عندما طلبت منك أن تبقى معي. عندما رجوتك أن تنتظر. عندما كنت أحتاج إلى ضمتك لألفظ حياتي بصدرك. ليكون آخر ما أستنشقه هو عطرِكَ. رائحتك. ولكنك رفضت

وابتعدت ظناً منك بأنك ستصحو كالعادة لتجدني، وأنا أسألك
الآن، هل وجدتني يا هشام؟! هل صدقت الآن شعوري بأنها
آخر ليلة؟! أشعر الآن بأنني من القسوة لدرجة أن أسألك وأنا
على يقين بأنني لن أسمع الإجابة أبداً، هل سمعتني وأنا أحتضر؟، أم
أنك كنت غارقاً بنومك؟! هل وجدت جثتي باردة في الصباح؟،
أم كان لا يزال بها بعض من سخونة نزعتي؟

أنا قاسية جداً يا هشام في تلك اللحظة، ليس قسوة عليك، بل
لأجلك!، نعم لأجلك حتى لا تكررهما مع غيري، فأنا أريدك أن
تعامل زوجتك الأخرى معاملة طيبة لتستطيع هي أن تحسن معاملة
بناتي، بناتي فقط صدقني هو كل ما أفكر به في تلك اللحظة، لا
تفعل معها كما كنت تفعل معي أرجوك، أرجوك أحبها .

عندما تبكي لا تتركها، ضمها إليك.

عندما تفتقد أهلها كن أنت كل أهلها.

عندما تفضب وتثور فجأة منك اعلم أنها تفتقدك، تحتاج ضمتك

عندما تهتف بك " ابتعد "، لا تفعل، بل اقترُب أكثر !.

عندما تصرف ببذخ اعلم بأنها تعوض نقص حبك واهتمامك بها،
تحتاج عاطفتك.

عندما تصرخ وتتهمك بما لم تفعله، اعلم بأنها لا تقصد ظلمك بل
تنطق بمخاوفها فقط، بما يموج به صدرها ولا تعلمه أنت .

هشام، أقول لك هذا وأنا مقبلة على ربي ليس لي حاجة في دنياكم، فأرجوك تفكر في كلماتي التي أنطق بها للمرة الأولى وقد حالت كرامتي وكبريائي أن أقولها لك سابقاً وأتسول منك حباً. صدقني لقد أحبيتك بكل جوارحي ولم أكن أطمع بالكثير، أردت حبك فقط، أردت ضمتك فقط، أردت أن أصنع معك عالماً يغنيني عن فقدهم من أحبة، لو كان العالم كله نبذني ووجدتك، لكنت تكفي، إلا أنني أضعتك أيضاً، فمن سيقى لي سوى ضمة قبر ربما ستكون أرحم بي من قلوب تلفظني دوماً.

أوصيك ببنياتي خيراً وتأكد بأنني سأكون معهما على الدوام، بكل طريقة ممكنة، فاحذر غضبي.

زوجتك المحبة " هالة "

أغلق هشام الدفتر وهو يرفع رأسه بعينين باكيتين ومشاعر مضطربة متضاربة.

لماذا لم تتكلم من قبل؟.

لماذا لم تنبهه لأخطاءه؟.

لماذا ضاع كل هذا الوقت هباءً وهو لا يفهم؟.

إنه لم يكن يقصد، لم يكن يقصد نبذها كما ظنت .

نحس والدفتر مازال بيده وذراعايه متهدلتان بجواره وأخذ يدور حول نفسه والدمع يقفز من مقلتيه وقلبه يغلي وحلقه يلفظ الكلمات

كقذائف تحرقه ويريد أن يتخلص من شدة ألمها وهو يهتف بخشخشة
بأكية:

- لماذا لم تتكلمي من قبل؟ كيف أفهم وحدي ما كنت تخشع في
صدرك؟ لم أكن أقصد. صدقيني لم أكن أقصد. أحبتك بطريقتي
لا بطريقتك. هالة. أجبي يا هالة أجبي لا تركيني أحرق هكذا.

عبارته الأخيرة جاءت كصرخة نداء غاضبة متألمة متحسرة كتجسره
الذى جاء بعد فوات الأوان. فتحت والدته الباب مندفعة نحوه وقد
استصعبت إلى صياحه الباكي وأخذت تحتضنه وتربت على كتفه وظهره
حتى هدأت صرخاته قليلاً وأخذت تنهت من فرط الإنفعال متمسكة دون
وعى ورأسه ملقاة على كتف والدته:

- قولي لها يا أمي اني أحبتها كما أحبتك والدي. أخبريها أنني لا
أعرف حياً آخر غير هذا. استعظيها في ليلى. أوفر لها ما تحتاج.
أرحها عندما غرض. لا لم نكلها لم " ريت كنا سنقاهم! تباً
لكرامتها تلك، تباً، تباً

كان يكفي أن تقف عند مدخل المقابر. فلماذا ظلت تتوغل خلف
الجنائز؟ ربما لم تكن تتصور فراق أمها يوماً من الأيام لذلك اتعت
جنائزها وقد غشت عينها غلالة من الدموع الصامتة. حتى صعد
الرجال وقد هالوا عليها التراب. الجيران أصرروا على مصاحبتها إلى هنا.
لم تكن معها امرأة واحدة فجميع جاراتها حذرنا من الذهاب. وبعضهن
مُحس إلى تحريم اتباع الجنائز للنساء. ولكنها أصررت. وما هي تقف

وحيدة على مشارف القبر بعد دخول الرجال المصاحبين لها للمسجد الصغير بالجوار لأداء صلاة الجمعة .

كشفت ذراعَيْها . أطرقت برأسها . راقبت ظلها . وهي تخطو خطوات واهنة في محاولة للوصول إلى السيارة التي تنتظر بداخلها حتى عودتها إليها ليعيدوها معهم إلى المنزل . ولكن غلالة الدموع كانت تزداد قهامة وثقلاً بمقلتيها وهي تتذكر معاناة والدتها قبل أن تموت . بل قبل أن تقتلها !

عندما وصلت هذه القطعة اعتصر قلبها برودة ثلجية مفاجئة . سرت على طول ظهريها حتى استطرت في لسانه وهي تتذكر جسد والدتها وهو يحترق بالكامل وتندبر لحود مصحطة في زواجها بين جدران غرفة المكتب . تضرب يديها كل شيء لمستخدم به وتصرخ صرخات بشعة لن تنساها يوماً . صراخ مهول يرقى إلى سماء الضيعة بالحي بأكمله . السنة لمحب ودخان غشت جدران غرفة المكتب وعندما حطم الجيران باب المنزل أخيراً كانت قد تنحست واستطرت جسدها خلف المقعد الضخم . وهي تقف بعيداً أمام العرصة المفتوحة . تشاهد . وفقط !

كانت تعبد . بل تعشق . ولكن حبه لم ينجح في شفاءها من مرضها النفسي الذي خفت وطأته بعد زواجها به . ولكنه لم يذهب تماماً . أما بعد موته بهذا الشكل المفجع فقد أصبح المرض يقارب الجنون في أعراضه . ثمزق لأجل فراقه شعرها عاجزة عن استكمال الحياة بدونه . أوقفت زمنها بين يديه . فماذا سيقى بعده إلا الرحيل إليه ؟ ! ربما كانت هي سبباً بمقتل أبيها . فلم تبخل على أمها بأن تلحق به !

وها هي قد أصبحت وحيدة فعليا. بيت نخشى الناس ولوحده وقد
استود بيت المجانين. نعم وحيدة. ولكن ليس تماما. لا زال لديها بعض
ومنهم صديقها الوحيدة. هالة التي اختفت هي وطفلتها فجأة منذ
منذ متى؟ ربما شهرين أو ثلاثة لا تذكر. والأغرب أنها لم تسأل. أكتفت
بقول مديرة دار الروضة بأن والددة جنى و لجنى مريضة للغاية. أم أكتفت
برسالة نصية من هالة مؤلفة من كلمات قليلة فقط:

- بناتي يا رؤى، بناتي في عهدتك

نعم هي تعلم أنها مريضة فيما الجديد ولماذا القلق؟! سيعودون
حتمًا. ربما هم في سفر ما. نعم ربما. من يدري!

هل الألم الذي يعتصر قلبها الآن هو ألم فراق ما تبقى من عائلتها
فقط. أم ألم الوحدة التي ستزداد وتنهش ما تبقى من إنسانيتها. وهل
تبقى من آدميتها شيء بعد ما فعلته بأهلها!.

توقفت حركتها مع توقف جسدها فجأة وقد ودعت الذكريات عند
هذا الحد وعذلت من وضع النظارة الشمسية القائمة فوق عينيها رغم
غياب أشعة الشمس بفعل الرياح القوية المحملة بغبار ورمال القبور من
حولها وقد أدركت أنها قد تاهت بين المدافن واختلف الطريق عليها.
ابتعدت نعم ولكن ليس كثيرا. وهي الآن لا ترى أحدا يمر بها لتسأله.
دارت حول نفسها وهي ترفع أناملها لتلمس وجنتها الميتلة من أثر
الدموع. ثم قررت أن تمشي في خط مستقيم لتصل إلى ذاك المنعطف
التي رآته وهي تشراب برأسها وتستطيل على أصابع قدميها الطويلة
لعلها ترى منفذاً من بعيد.

سارت خطوات متعجلة متحمسة طريقها وانصت بحوم حوص.
 يثقلها ويثير مخاوف قديمة برأسها. رائحة الطوت تسعت من كل احد.
 ترى هل يحاسون الآن على ما فعلوا في ديارهم. ماذا يكون. هل
 يعذبون بذنوب أم ينعمون بقوة؟. أحفلها نباح كلب يهرق في الطريق
 الغير مههد من بعيد وقد سهجت الريح فأسرعت تحت الخطى حتى
 بدأت تلهث بقوة وتتعثر خطواتها التي اقترنت إلى الركض واستحال
 سواد ملابسها إلى الرمادي بفعل العوار المضارب والاكياس البلاستيكية
 والأوراق الممزقة المتطايرة من حوها وإسماها بفعل الرياح. خطوات أخرى
 و تراءى لها باب إحدى المداخل القريبة مواربا قليلا وسجعت صوتا ما
 آت من الداخل. طشت على الصور بانه أحد الزائرين لهذا القبر. وأنها قد
 وجدت أخيرا مرشدا لتلك المأهدة المحيرة التي ضاعت ها. صعدت
 السلم الصغير واستندت بكتفها على حافة الباب وهي تنظر للداخل
 وتنحج بخفوت دافعة الباب بخفة قليلا وتقدم خطوات بطيئة متسلسلة
 نحو شاهد القبر باحثة عن مصدر أصوات لشد الغمس. يرتفع حاجبها
 دهشة عندما وجدت المكان خاليا تماما. لا أحد على الإطلاق !

هل كانت تتخيل أم ماذا ؟!

نفضت القلق عنها وهي تشرع في الاستدارة للعودة ولكن جسدها
 ارتج للخلف بقوة قبل أن تكمل استدارتها وارتطمت بأحد حواف
 الباب الحديدي خلفها بقوة فأغلقتها لتصبح وحيدة بالداخل. اتسعت
 عينيها بذهول ورعب وهي متجمدة تنظر إلى غطاء القبر الذي بدأ
 يتلاشى فجأة أمام ناظريها وكأن ذرات ترابه وأحجاره تتبخر في الهواء
 بسرعة كبيرة وتغيب في السماء التي أكفهرت فجأة وأظلمت، بضجيج

يكاد يصبه أذنيها. تعرى الفتر وظهور جلينا من الداحل ورأت الحسد
المسحى بداحله محاطا بالكفن الأبيض ووجه مكشوف أمامها. لا ليس
وجهه. بل وجهها. إنها امرأة.

حاولت أن تتراجع ولكن قدمها تعمدتان عن الحركة فسقطت على
ركبتها ملقيا فوق الرمال المعثرة على أرض المدفن وعاص قلبها بين
أصابعها. حتى شعرت بخون نبضاته نكاد تغزق حجبها. حاولت أن
تصرخ ولكن صوتها احتجز في قاع حلقها. عندها أدارت المرأة وجهها
الشاحب إليها شحوب الموت وقد رحلت عنه ألوان الحياة وغارت
مقلبتها للداحل. تعرفت رؤى على ملامح المرأة وحاولت الصراخ
باصبعها. هالة !. ولكن صوتها لم يصل لنفسها أبدا. صوت همس هالة كان
أشبه برياح تعبر بخوار أذني رؤى فانتسعت عينها عندما فهمت ما
همست ظاهبه والذي لم يكن سوى كلمتين فقط " سالي " سالي "

خرج من عمله مندفعًا نحو مسلم الشركة الخارجي. يحمل سترته
بأصابعه خلف ظهره وقميصه غير نهديم مفتوحة أول ثلاثة أزوار منه
بعث وكأنه خارج من معركة ما للتو. تابعت عيون رجال الأمن أسفل
البنابة بفضول وتساؤل. بينما تجاهل نداءات عادل صديقه و زميله في
العمل المتكررة والذي حاول اللحاق به قبل أن يتعد ولكنه لم يجبه. لقد
خُصم له منذ قليل ثلاثة أيام أخرى من راتبه على أثر مشاجرة افتعلها
هو عندما أخطأ متدرب في أحد أرقام الحسابات. لم يكن مجرد شجار أو
انفعال. لقد أمسك بتلابيب الموظف وهو يصرخ به ويسبه. حزن

زملأوه قدسائه ولكنه لم يستحب لتحذيرهم حتى سمعه مدبر فرع الشركة الذي اكتفى في المرة السابقة بمجرد لفت نظره وتوبيخه. أما هذه المرة فلقد تجاوز حدود العمل بكثير. شهر تنو النهر وهو يقف انصافه واتزانته وحب زملائه بسبب سلوكه العييف والغير موز من وجهة نظرهم. لا يعلمون ما يعانيه بعد فقدانها. الدم والالم أصحبا بملوكاته بين فكليهما. المسؤولية التي كانت تقفل كتنبيه فجاء استيه بعد عياب والدتها لم يعد يحملها. كل يوم يقف عاجزا أمام حروف حتى وحين المبعثرة لا يستطيع فهم جملة مفيدة منها. لا يستطيع التعامل معها. اكتشف ولأول مرة أنه لم يكن والدتها فعليا، لا يعرف عنهما أى شيء. ماذا تأكلان. كيف تنامان. ماذا يفعل عندما تستيقظ أحدهما ليلا باكية من نومها وأحيانا قبله فراشها. تنادي أمها وتبحث عنها في جميع غرف المنزل وفي النهاية تحف دموعها فوق وجنتها وهي تنام مرغسة وشيقاها متواصلة تشق صدره. لا يعلم ماذا يفعل.

هل كنت تخمين كل هذه المسؤولية يا هالة دون أن أدري. دون أن أشعر. بل كنت أحيانا أتساءل ماذا تفعلين طوال اليوم في غيابي. اليوم علمت. اليوم أدركت. اليوم أنام في فراش بارد وحدي. أفقد حتى شجارك معي. أفقد روحك الدافئة. حيث الصامت لي. لماذا لا نشعر بقدرهم إلا بعد أن يرحلوا. ذهابا بلا عودة؟

احتاجك يا هالة احتاجك بشدة !.

عندما عاد إلى منزله مر في البداية على شقة والدته ولكنه لم يجدها. ولم يجد البنات أيضا. ترى أين ذهبت؟. صعد إلى شقته التي لم يعد

يدخلها إلا نادراً منذ وفاة زوجته وانطلق هو وسائقه للعيش في شقة والدته بعد أن أصبحت الوحدة صديقهم الأوحده. دارت عمة في الأركان وهو مازال يقف على عتبة. نوافذ شقته كانت مغلقة والسجود تحجب عنها الشمس كما تركها ثامناً. الغبار يعلو الأثاث والسجود والخوانط. كانت ترحب بالأصوات والحركة والخيافة. والآن صامتة ككتف بلا زوار.

لم يستطع أن يخطو خطوة للداخل إلا قبل أن يمد أنامله ليضيء المصباح. وعندما دخل لم يغلق الباب خلفه. تربت خطواته وهو يلج غرفة الفتيات ويشتعل ضوءها في البداية قبل أن يلفها بعينيه لتوان. ترى أين خبات والدته الدفتر التي كتبت فيه حالة خطاتها الأخير له ولبناته. لقد خشيت عليه والدته الإخيار مرة أخرى فخبأت الدفتر ولم تقوه بمكانه. كانت لديه رغبة قوية في قراءة وصيتها خفي و لجين ولكن والدته لم تمهله فاستطاع بالكاد قراءة كلمات مطروحة هنا وهناك في الورقة. تعلقت عينيها فقط بالكلمات التي كررتها حالة للساعات وهي تطمأنه قائلة مراراً وتكراراً:

- سأكون حولكما دوماً، وكعادتي سأنام بغرفكما دون أن تترابا

ترى ماذا كانت تقصد بتلك الجملة وماذا كانت تعني بتحذيرها إياه عندما كتبت له " أحذر غضبي " !

في تلك اللحظة نباته حواسه بأنه لم يعد وحيداً في الشقة عندما سمع صوت خفيف ثياب كحفيف أوراق الشجر قادماً نحوه وشعر بكف باردة توضع على كتفه من الخلف. التفت فرغاً وقد صدر منه رغباً ع

شقيقة مكتومة، وما أن اكتشلت استدارته حتى واحد عسفا وهي غرك
رأسها وعلى شفتيها ابتسامة ساحرة وتقول:

- العادات القديمة لا تموت !

زفر بقوة والشحوب يودع وجهه وتعود إليه الحياة مجدداً وهو يمسح
بكلتا يديه ثم ينظر لها وهو يرفع عييه إليها بعين قارئة:

- لا أعلم ماهي هوايتك في الفراغ هكذا كلما حانت لك الفرصة
ضربت والدته بعصاها على الأرض وهي تضحك خفوت قائلة:

- لا أستطيع أن أفوت على نفسي فرصة رؤيتك وأنت مدعور
هكذا كالأطفال

زفر من جديد وتخطات حائقا وخرج من الغرفة ثم من الشقة كلها
هابطاً إلى الأسفل ومازال قلبه يخرب ليعود إلى نبضاته الطبيعية. تستغل
والدته كل فرصة ممكنة لإفراجه متعة عجيبة وكأنها تلهو منذ أن علمت
بالقويما التي تُصيبه في الأماكن المهجورة والأصوات العالية المفاجئة
بجواره .

تحولت ملامحه من التشنج والحق إلى الخنو والهدوء عندما وجد
ابتداء تقفان على عتبة باب شقة والدته ويرتديان ملابس دار الروضة
المخصصة بحما. جنى ثكتف يديها فوق صدرها وتحاول أن تضغط
جرس الباب بلسانها و لجين تدفعها بعيداً عن زر الجرس بتقزز وهي
تنظر إلى لسان أختها وكأنه قد تحول إلى ثعبان يريد ابتلاع فريسته

يرود. أسرع بالخطى نحوها وحملها فجأة تحت ذراعاه وهو يدخلهما
شقة والدته هاتفاً بحب:

- أينها المشاغبتان

لحقت بهن والدته وأغلقت الباب خلفها ووقفت تنظر إليه وهو
يدغدغهما وهما تضحكان بصعوبة وتظنران إليه نظرات مندهشة لعدم
اعتيادهما على مذاعباته أو التقرب منه. تقدمت والدته وجلست على
الأريكة العتيقة بجوارهم وهي تقول بلا مقدمات:

- لقد وجدت لك عروس مناسبة

توقف عن الحركة وضاعت نظراته مع اختفاء ابتسامته بالتدريج فلم
يبقى منها سوى شبح ابتسامة مرسومة فوق وجه حزين بينما ضحككات
البنات كانت تصله وكأنها صدى يتردد من بعيد. ألن تياس أمه من هذا
الحديث، ألن تمل أبداً!!

يكفي حالة وما سببه لها من ألم وعذاب، حتى آخر رمق لها. هل
يُدخل امرأة أخرى في حياته ليعذبها هي أيضاً حتى تموت مكتوبة بناره!،
رفع رأسه عندما سمع حديث والدته مُكرراً بتصميم هذه المرة:

- هشام، كن واقعياً، أنا أنحرك بصعوبة وأختك عصبية ملولة تحتل
زوجها بالكاد، ولا تسأل عنا سوى في المناسبات فقط، والبنات
يحتجن إلى أم ترعاهما، اليوم تعبت بشدة عندما ذهبت بهما إلى
دار الروضة وهناك بحثت عن عاملة تأتي لتأخذهما كل يوم إلى
هناك وتعيدهما ثانية في آخر اليوم.

لقد استطعت أن أجد مخرج لتلك المشكلة أما بقية مسؤوليتهما فانا لا أستطيع حلها، أنا أعتنى بنفسى بصعوبة يا ولدي

نحس واقفاً وهو يضع كلتا يديه حول خصره وغصبة مُسننة عالقة في حلقه لا فكاك من ألمها، يكاد يتنفس بصعوبة وهو يشعر بما تقف بجواره وتقول بإصرار:

- إنما تحب بناتك ولديها استعداد لترك عملها ..

هتف وهو يستدير نحوها متسع العينين:

- هل هي تعمل أيضاً؟!

حاولت الحديث ولكنه قاطعها وهو يضحك ساخراً وحروفه تقطر بؤس ومرارة:

- تعمل!، زوجة أخرى تعمل، ماشاء الله، ثم نخوض حرب ضروس بعد الزواج لرغبتها في العودة للعمل، ومشاجرات لا تنتهي، وألم وعذاب ثم موت ..

- يا ولدي هي ستترك العمل بإرادتها وست..

صرخ مقاطعاً أمه من جديد وقد صارت عيناه حمراء بلون الدم من فرط انفعاله وهو يسترجع لحظات شجارهما في أول عام مر عليه بعد زواجه الأول:

- هالة تركت العمل أيضاً بإرادتها من أجلي، ثم ماذا، ألم تشهدي بنفسك على حربها معي لكي تعود لعملها؟!، لا يا أمي .. لا

وألف لا. لو كانت هذه الفتاة هي أحر امرأة على وجه الأرض
تزوجها أبدا.

وقيل أن تسوع كلماته كان قد خرج من الشقة سرف مصاد
الباب خلفه بقوة معلنا رفضه الصريح لرؤى دون حتى أن يعلم من هي

...

ها هي قد رفضت كما توقع من البداية. وقيل أن براها من
الأصل. فكيف لو رآها؟. رفعت رؤى رأسها بإحباط غشى النظر لعيني
والدة هشام حتى لا ترى انعكاس هزمتها في معركة لم تبدأ بعد وهي
تسمعها تنهد بحسرة قائلة:

- أعلم بالبنى أنك وافقتي على مضط. لقد حكمت لي حالة رحمة
الله كل شيء. وأنا الآن وحيى منك في الأرض. لا أعلم ماذا
أفعل

ضغطت رؤى الدفتر الذي تركت به حالة الوصية والرسالة بين يديها
بانفعال وتوتر رغما عنها قبل أن تقول بصوت لا يكاد يسمع:

- لا عليك يا خالة. المهم الآن هو مصلحة جنى و جين. أنا كانت
من سيتزوجها لأبد وأن تكون رحيمة تستطيع التعامل مع حالة
الفتيات بعد أن تزوتا هكذا .

أومات والددة هشام برأسها مؤكدة وهي تخط شفتيها بخوف. أين نجد
من تتوفر بها هذه الصفات. لقد شاهدت فتيات كثير في المركز الطبي
كلما ذهبت للحجامة أو التحدث مع غير هناك. فهل نجد عندها
مطلبها؟. خفضت واقفة متكأة على عصاها بضعف وظهر منحني وقد
عقدت العزم على ألا تترك غير إلا بعد أن تشرح لها أكثر من فتاة
مناسبة لظروف ولدها وبناؤه. لا سبيل آخر أمامها .

اقتران

عادت والدته هشام إلى منزلها بعد أن تركت رؤى على حوائط المحبطة تلك، وبرغم تعاطفها معها إلا أنها وجدت نفسها تذهب من فورها إلى مركز العلاج الطبيعي حيث عير وفتياتها الكثير من حولها. فمصلحة ولدها في المقام الأول. والمسؤولية الملقاة على عاتقها أكبر عندها من الجميع. ومن أجل العلاقة القوية التي استطاعت والدته هشام تكوينها مع عير في الفترة الماضية. استعنت لها الأخيرة للنهاية بصير ثم وعدتها بصدق بالبحث الجاد لها عن زوجة مناسبة. ضرت عصاها على الدرج وهي تنكأ عليها بشروء مستعدة إلى بعض الأمل لتصعد الدرجات إلى حيث شقتها وعندما أدارت المفتاح في الباب سمعت خطوات سريعة تصعد إلى نفس الطابق. التفت عاقدة حاجبها ثم ما لبثت أن انفرجا بانسراح وتغضنت زوايا عينيها بائسامة مجمدة وهي ترى عادل صديق ولدها يقفز السلم برشاقة صعودا يجسده التحيل ويتسم لها وهو يحجبها بمرح:

- وأخيراً التقينا يا جميلة !

حذرك وأمره هشام وهي ترحب به بشدة وتعود لتسجل
عند هو الوحيد القادر على إصعادها ثمرة النعمان. لها كوكب في
بعضها مرام من قديم المشاهدة لهدم هشام في كل شيء. فيها هو
أيضا رجلا لها زوجها وتركها له طفلي حديث الولادة وقد كانت
يرجعها إلى طريقها أثناء ولادته. القاري الوحيد بينهما أنه زوجها من
عطفه وبعد فراقها رفض كل حديث عن زواجه بأخرى. لم يكن
مصور امرأة أخرى عوازه بعد حبيبته الراحل. واشتعل بالاحياء فضله
بمساعدة والديه، حتى هذه اللحظة !

خدمه ذكبه تخلص في الداخل وهي تستعد لدخول المطبخ
لاحضرة مشروب له وقتها أيضا ثم سأل عن هشام فتهتبت بأسي
وهي تشير برأسها للغرفة الداخلية:

- قائم كالعادة بجوار بناته

استدركت تعود إلى المنعد الخاور له وهي تستند كلياً على عصاها
كأن يديه ثم تركن بدنيا إليها متابعة بعدم رضا:

- بعد عودته من العمل يقضي معظم يومه نائما كما ترى يا ولدي
إنكر عادل إلى فخذيه بترفيه وهو يطرق بكعب حذاءه الأرض
قليلاً متعصفاً:

- أصبحت انفسه على انك. كل يوم يصنع منكده ربي
احمد

ما ظنك شوق يسا هو بعض وبأني تفعده حتى عبق شعاع ارمي
شكر عكسي ثم بعض فوفه موحيا له فحولا اخليت عدي

- انجي يا حاني، لانه وان تروحيه. ان نروح خلعت منكده نور
صديقي

فعلت عبيد - حرة وهي تشير اليه يدقها هاندة

- انظروا من يتكلم !!

رفع كفه يديه باستسلام مذاقها عن نفسه

- لا لا لا، خالتي أنا فتخلف

- بل أنت فتخلف

حاول ألا يفيقه بقوة ولكنه لم يستطع مع ضحكة عالية بالظهور
لثوان قبل أن يكتنح بكفيه معتدرا وهي لمسة لبضمت ففعل على
مضط قبل أن تشير إليه ليقرب بالباء ثم وقد بدا عليها أنها على
وشك النوح بسر عظيم. فاقرب وهي قبض له:

- زوجته رحمها الله كانت قد حدثني قبل وفاتها عن فتاة وحيدة
تعمل في دار الروضة القريبة من هنا وهي معلمة للطفلين أيضا. وأعدت

عدة مرات وتعرفت إليها وهي فتاة طيبة ومؤدبة للعامة وحيوية جدا
على الأطفال .

سكنت هنية ثم أشاحت بوحيتها بسارا بتممر وهي تستمر بالفس
بعد أن مصصت شفيتها:

- ولكن الخروس ولدي رفضها دون حتى أن يراها تحرد عليه بأها
عاملة .

أوما برأسه مؤكدا وكأنا بساندها في تدمرها وهي تنابع أسرارها
الحرية مغفمة:

- حتى بعد أن أحزنه بأها ستترك العمل طل على رفضه وثورته .

واشتعلت عيناها بحساس جاء كزائر جديد على حديثها وهي تلوح
بيدها بتصميم حتى كادت أن تضرب عينيه:

- خمس فتيات رأيتن وأنا في مركز العلاج الطبيعي الذي أتعالج
فيه ولقد وعدتني الطبيبة هناك بأن تأتي إلي بالحريد. بيني وبينك
الطبيبة صديقتي ولكني لا أحب التأخر كما تعلم !.

كان يومي، برأسه بلا توقف وهو يهدف جمعه لها وما إن انتهت حتى
قال بخفوت يادها أسرارها:

- هل هي جميلة؟

عقدت حاضنها بذكر نصف شقيقة كاملة قبل أن تقول :-

- لا أعلم يا ولدي هل يصح أن أصف لك امرأة مسلمة أو لا ؟

رفع حاجبه مدحفاً قبل أن يهتف بعزلة

- العروس منتقبة ١٢

- إنا حتى غير محجبة يا معنود

- أنت من قلب بأنها منتقبة

- أنا أتحدث عن الطيبة أيها المختل

أعاد رأسه إلى الوراء بإدراك متأخر :

- آه ، فهمت

مجدداً مصصت شفيتها وهي تنظر له مستبحة حينه انطلق وهي

تتحسر بكاءً :

- يبدو أن ولدي ليس هو العروس وحده كما كنت أظن

حرك رأسه نفياً وهو يجيبها :

- صدقيني يا خالتي. الخروسين أكثر في هذه البلد الجميل

وعفاً عنها ابتسمت ابتسامة واسعة وهي تخر رأسها منعجة قبل أن

تنظر في عينيها بمكر متسائلة وقد ظهرت لها لمعة جديدة في عينيها :

- عادل، أنت قررت الزواج أخيراً؟ ليس كذلك؟

اتسعت عيناه بدهشة قبل أن يراوغ مجدداً:

- أوتقرأين الأفكار أيضاً، قلبي الصغير لا يختمل؟

فخرته بجديّة هذه المرة متجاوزةً عن مزاحه الثقيل هاتفةً بوجهه:

- لن تفلح مراوغتك، أنت قررت الزواج، صحيح؟

أطرق برأسه أمام ذكائها ومعرفتها به وقال معترفاً متهرباً من عينها:

- أنا رجل في الهندية يا خالتي وأحتاج إلى شريكة حياتي، والطفل

أيضاً يحتاج إلى عائلة متكاملة، ولكنني لم أجد امرأة بالمواصفات

التي أريدها بعد .

ناظرةً بخدوء، وهي تفكر في الدقائق القليلة السابقة، عندما انتابها

الحزن على وحدته للحظات وعشقه لامرأته المتوفاة، والذي بدأ ينحصر

بجوار تلك اللسعة المصيبة في عبيد لجود أن أعاد التفكير في المسألة.

وتضع نفسها في كفة الميزان الأخرى وهي التي وهبت عمرها لتربية

ولدها بعد رحيل روحها وصممت على ألا تمنح نفسها لغيره مهما

حدث .

لماذا تقارن الآن وهي من سعت للبحث عن عروس لولدها بمجرد

أن علمت بمرض حالة المميت، أهو ذاك دور البطولة الذي يتلصقنا

بعوارضه دوماً عندما يتعلق الأمر بالآخرين؟!، أم هي فقط سنة الحياة؟.

وحدث وحيثما يرتفع ثلثان غود وتساؤه بنفسه

- هل تريد أن أشرح لك واحدة؟

ازدرد ريثا وهما وتصحح ليحلى حمرته أو ليحلى ارتياكه ريثا وهما
يجيب بنمهل

- أعجبتني مواصفات العروس التي رفضها هشام دون أن يراه.
فقط أريد أن أعرف، هل هي جميلة؟

تعجبت أكثر وهي ترفع كتفها غيرة وشوق

- أنت وذوقك

- كيف !

دعوت بنفاد صبر منها وقد احتدم الصراع بداخلها، ماذا تفعل، هل
تُعطي فرصة أخرى له هشام ربما بعيد النظر فهو الأسبب لها، أم تعص
على وعد غير وتترك له رؤية فرصة مع عادل، حسنت أمرها أم لا؟
بقرارها أن تترك الأمور عالققة بعض الشيء، وتمسك بالعصاة من
المنتصف فقالت:

- بئى، كل رجل وله ذوق مختلف، فمثلاً في الماضي كانت الفتاة
تمتلك القوام هي الأجل في عين الرجال وهي ذات الحظ الأوفر في
طلب يدها للزواج. أما الآن فرمما الوضع يختلف بعض الشيء.
ربما تكون جميلة في عيني ولكنها لا تعجبك، أنت وذوقك !

رأته يُغمض عين بينما يبقى الثابتة مضمومة وهو ينظر لها برب حيث
بادرالك:

- خالتي، أنت تلاعبيني !

ضربت عصاها في الأرض حافة وهي تبيض صانحة فيه ونظرها
تعيد بعيداً عنه:

- أيتها رؤى وأنت تعرف عنوان دار الروضة. أذهب وانظر إليها.
ولا تتحجج لي. سأذهب لأدلفك صدقك المحلول مثلك !

تبعها نظراته وهي تلاح العرق الأخرى وهو يمر أصابعه بين
خصلات شعره الكثيف منكمراً في الأمر خدية أكر. سيفعل ما قاله
بحق قبل أن تنصرف عاصفة. سيذهب ويراها ويتحدث إليها ربما
تعجبه. بالتأكيد حالة لن توصي إلا بمادة تأمينا على استيها وبتنها. لن
تأخذ مكان زوجته السابقة حتما فهي قد تركت وجعا مستمرا في خافقه
الذي كان يعشق كل تفصيلة بها. ربما تساعد رؤى في تسكين هذا الألم
وتعيد إلى روحه الراكدة نكهة من حياة غادرت بلا عودة. ولم لا ؟ .

- أنت تشبه الأطفال في تشبثك بما تريد يا عادل. سأنصرف حالا

كانت العبارة الخائفة لـ هشام الذي ألقاها وهو يدرس كفيه نحي
بنطاله وهو يستدير مستعداً للانصراف ولكن عادل تمسك بترفقه بقوة
وهو يجذبه ليعيده بجواره أمام السور الخارجي لدار الروضة هاتفاً برجاء
- وتتركني وحدي في هذا الموقف!!

زفر هشام بعدم رضا وهو يلوذ نفسه على استسلامه لرغبتين
صديقه المراهق الكبير. عندما أخبره عادل برغبته في الارتباط مرة
أخرى. بارك هشام هذه الخطوة الجديدة التي كان يتوقعها منذ أسابيع
وهو يشعر بحاجة صديقه للزواج فجداً. ولكن لا يكره أنه فوجيء
عندما علم برغبة عادل في الزواج من نفس الفتاة التي رشحتها له والدته
من قبل. ومع تصميم عادل الذي لم يستطع التناكس منه اضطر إلى
الإنصياع له ومرافقته إلى دار الروضة ليراها مستعدة من بعد أولاً حتى
إذا أعجبته يقفز إلى الخطوة التالية ويحدثها عن رغبته بزيارة رسمية لبيت
عائلتها. في البداية رفض الذهاب معه بشدة فالأمر برمته لا يخصه.
ولكن عادل قطع عليه الطريق بمكر وهو يسأله إن كان قد أعاد التفكير
فيها كمعروض مستقبلية مما جعله يزفر في النهاية مُعلنًا موافقته وها هو
الآن يقف بجواره كمراهقان يتسكعان أمام مدرسة للبنات فقط !.

جاءت أمام عادل القرصة التي كان في انتظارها منذ ساعة على
الأقل وعبرت إحدى عاملات النظافة من البوابة الداخلية للدار ومرت
بالحديقة الصغيرة حتى توقفت أمام صندوق القمامة الخارجي وهمت بأن

تضع به أحد أكياس القمامة الكيرة السوداء. تحرك عادل سريعاً نحوها ورآه هشام يتبادل معها الحديث قليلاً قبل أن يدس في يدها ورقة مائة ما ورأها تبسم له وهي تشير بأصبعها إلى كلتا عينيها وتستدير ليعود للداخل. قطب هشام ما بين حاجبيه بضيق وهو يتوقع الحديث الذي دار بينهما. لم يكن استيائه بسبب الحديث نفسه. بل للطريقة السهلة التي يستخدمها عادل دوماً للحصول على ما يريد بساطة لا تذكر طاماً بملك ثمنه !.

وضع عادل يديه بابتسامة وهو في حبي سقالة الخيز وهو محوّر بذكاء ويبحث الخطي نحو هشام الخائف الذي ينظر في ساعته كل ثابنتين تقريباً. وعندما اقترب منه قطب هشام بقلة صبر :

- عادل. أمانك خمس دقائق فقط وسأتركك هنا وأنصرف. اليوم الدراسي أوشك على الانتهاء ولو حضرت أتي صدفه ووجدتني هنا لن يمر الأمر هكذا ببساطة، وأنت تعلمها جيداً .

لم يكده ينتهي هشام من إلقاء وعيده. حتى وجدا العاملة تعبر الباب خروجاً مرة أخرى وتتجه نحوهما بابتسامة واسعة متأملة وتسرع الخطي نحوهما بنظرات تلمع بالنصر المؤزرا. اقتربت العاملة منهما وهي قد يدها ل عادل بالهاتف المحمول، وبالرغم من قدم تاريخ تصنيعه إلا أن كاميرا الفيديو به تُسجل بشكل لا بأس به. تناول عادل الهاتف منها واقترب يجسده من هشام وهو يُعيد تشغيل الفيديو التي سجلته العاملة

أرأى وهي تتحدث بطلاقة بداخل أحد الفصول مع الأستاذ
وقازحهم بلطف. تعلقت عيني عادل بعينها لدقيقة كاملة وانسحب
خفيفة علت شفاهه لما جعل هشام ينظر إلى الدقيقة الأخرى القليلة
زمن القيد بفضول ثم تسائل فتمسكنا:

- هل هذه هي ؟

أوما عادل برأسه وما زالت الابتسامة تعلو شفاهه وهو يندفق بملاحمها
الصغيرة لما جعل هشام يوقن بأنها سكنت منطقة القول بقلب عادل
وخصيصاً وهو يرى نظرة الرضا والشفق التي تتراقص بعيني صديقه منذ
بداية تشغيل مقطع القيد حتى ثباته. لم يكن هشام وحده من لاحظ
الابتسامة عادل بل العاملة أيضاً فعلت وهي تسبح في رقبتها منتظرة
بقية الإكرامية بلهفة وشفق. ولم يخف عليها، لمحتها عادل ورقة أخرى
بسواء هذه المرة وهو يشكرها ويتناولها هائتها وعندما انصرفت بسرعة
تكاد تطير من السعادة برغم ثقل وزنها. التفت عادل نحو هشام وهو
يحاول رسم تعبير حيادي على وجهه قائلاً:

- أعتقد أنني سأنتظرها لأتحدث إليها. لو أردت الانصراف أنت.
لا بأس

رفع هشام حاجبيه بخبت وهو يستند إلى حافة الباب الخشبي
القصر والمملون الذي يقف بجانبه يريد التلاعب بصديقه قليلاً قائلاً:

- أنا غير متعجل. لو أردت الانصراف أنت فافعل

لم يلاحظ عادل نبرة المزاح في صوت هشام مما جعله يرفع راسه متجهيناً نحوه. كان هشام يريد الاستمرار في مزاحه ولكن ملامح عدل في تلك اللحظة كانت كقنبلة بأن تطلق العنان لصحكتها العالية وهو يمسك بذقن عادل ويقول بأسلوب ساحر

- هل وقعت في الحب من أول مقطع همدو يا صديقي؟

حزر عادل ذقنه وهو يدفع هشام بعيداً وقبل أن يرد عليه رأى بعض النساء مقبلة نحو باب الدار من أكثر من اتجاه فعلم بأن اليوم الدراسي قد انتهى وسنخرج له عروسه العاهلة عن ما يحدث حولها بين لحظة وأخرى مما جعله يسي هشام غاماً ويلبثت بكامل مشاهد مرافق الباب الداخلي. نظر هشام إلى ساعة معصمه وفكر التحرك على الفور قبل أن تخرج الفتيات أو يراه والدته وتقع فريسة بين يديها

لم يشعر عادل بالنصراف هشام وهو يراها تخرج حاملة حقيبتها وتحرك بخفة بين الأطفال المندفعين للخارج تنهوا. لا يعلم لماذا تتعلق عينيه بعينيها تحديداً ولا يكاد يحيد عنها. هذه ليست خصاله أبداً. فهو كالمعتاد في مثل هذه المواقف يحدق بالفتاة بالكامل ولا بد وأن يحصل جسدها على نسبة نجاح لاختياراته لا تقل عن تسعون بالمائة. هذه فقط التي ودون أن تدري أسرت عينيه بداخل عينيه وجعلته غير قادر على تحريكهما بعيداً عنها. نظرهما الطقولية تقطن بها دمة خفية تلمع من خلف زجاجها الشفاف، ربما هي دمة تأثر وقد كانت يدها تربت نحو

على راحة طفلة يظهر عليها أنها من ذوي الاحيااحات الخاصة. هي
هي حيون إلى تلك الدرجة. وعندما التفتت إلى العاملة وراقا تصوره
اعتقدت بأنها تفرح معها فبادلت الكميرا ابتسامة بريئة وكأنها تسميه
هو بالذات. سر ما بها. ربما عندما يقترب يستطيع فك اللغز

تقدمت العاملة منها وحمست لها وهي تشير بأصبعها نحو عدل
الذي استطاع المرور بسهولة من بين النساء والوقوف بالقرب مكان
منها. اقتربت منه بروتينية وارهاق واضح وهي تتوقع أن يكون أحد
أولياء الأمور ويريد السؤال عن ابنته. وعندما وفتت أمامه مريحة به
بعملية ومن دون ابتسامة واحدة. تلعبه قليلا قبل أن يتمالك نفسه
ونظراته تتركز بداخل عينيها متسانلا.

- آنسة رؤى ؟

أومات برأسها مؤكدة بصمت منتظرة أن يبدأ بعريفها باسم ابنته
ولكنها فوجئت به يقول على الفور:

- هل من الممكن أن تمنحني عنوانك بالخط ؟

كاد أن يقع على وجهه بعد أن تعرفل بأحد درجات السلم ولكنه
حافظ على اتزانه في اللحظة الأخيرة وهو يمسك بسوره الخديدي
واعتدل ينظر خلفه بتذمر نحو والدته التي كانت تدفعه من الخلف

ليصعد بعد أن لاحظت تردده ووقوفه عن الحركة لتوان. عدل من قبضه الأزرق بفتور وهو يزفر بشدة ويطمن على وضعية غلبة الخلوى الكبيرة في يده الأخرى ثم يكمل رحلة الصعود للطابق الرابع بلا حول ولا قوة. ها هو قد أطاعها زعلها عنه بعد أن نفذت خججه وقد آتت له بعروس يتوفر بها الشروط التي تمسك بها ورفض رؤى من أجلها. فتاة لم تكن تعمل في يوم من الأيام. محجبة. وعلى استعداد لقبول ظروفه وتربية بناته كما يحب. حاول أن يقرب من حصار والدته كثيرًا ولكنها لم تبال وطلت نظارده بمكرها لأيام. مرة تدعى المرض وترفض إعداد طعامه. ومرة تضغط عليه باخديت المواصل عن عادل صديقه الذي أخذ منها مواصفات رؤى وعصوات غسلها في دار الروحة وفي الأسبوع التالي اتصل بما ليدعوها لمصون حفل زواج البسيط والسريع ثماني حلقه من غرفة لأخرى تخفي له عن العروس الحبيبة التي رشحتها لها غير وامتدحتنا بكل الصفات الرائعة. حتى بالأسوأ أصبحت حياته لا تطاق. وأخيرًا اضطروا للرحيل والمواظقة. الهداة بريمة الأنوس وتعيش مع عبيها في تلك البناية في الطابق الرابع الذي كاد أن يتجاوزته أثناء شروده لولا والدته التي جذبت من ذراع قبضه متأنقة من ضياعه وهي تحبس بأنفاس متلاحقة بأنفاس وصلوا إلى الشقة المشوذة. استدار وهو يخلص قبضه من قبضتها ويهتف من بين أسنانه بغيظ :

- أمي. لماذا تعامليني هكذا. احترميني قليلًا ؟

الزيارة ومن الواضح من المقابلة الدافئة والمرحبة بشدة بأن الأمر لا ينقصه سوى تعارف الطرفين فقط. عرف من حديث الرجل بأنه عم العروس وفي مكانة والدها تمامًا لديها. وهي تعيش معه هو وزوجته منذ أن فقدت والديها، تبادلوا الأحاديث حول ظروف هشام الخاصة منطرقين إلى وفاة زوجته الأليمة وغيرها من مناقشة وضعه المادي الذي لم يختلفوا حوله أبدًا. ثم طال الحديث عن والد العروس رحمه الله ومدى تعلقها به وتعلقه بها بشكل خاص حتى أن هشام وجد عينيه تدمع رغما عنه وتعاطف معها دون أن يراها .

من الواضح أن العروس خجولة للغاية وتخشى اللقاء. فزوجة عمها خرجت إليها عدة مرات وفي كل مرة تعود بدونها. حتى أن الظنون بدأت تراوده حول رفضها له.

طرفات خفيفة على اليد من الخارج قطعت عليه أفكاره وجذبت انتباهه ونظراته لتقدمين تلحان إلى الغرفة بتردد واضح وكأنها تريد العودة من حيث أتت. صاحبها رائحة مسكية ليمونية أنعشت حواسه. مرت عينيه مرتجلة على تفاصيلها من أسفل إلى أعلى ببطء. اصطدمت نظراته بأصابع كفها المشابكة ببعضهما البعض بتوتر أما معدتها وكأنها تعاني ألمًا ما بها. ولكن عينيه لم تتوقفا بل استمرت في الصعود راحلة حتى جاء دور وجهها أخيرًا في الظهور أمام شاستهما البراقة. في تلك اللحظات كانت والدته تقوم بدورها في احتضانها بحفاوة ودعوتها

للجلوس بجانبها، تألفت نظراته وهي ترحو والدته بالابتعاد قليلاً. لا يزال يريد وجبتها أكثر. جلست نجوار والدته هشام مطرفة إلى الأرض وحببت منور بخوف أكثر منه خجل، لم يتحدث إليها وترك لوالدته العنان. فهي كفيفة بالأمر. بالإضافة إلى أنه مشغول بمراقبة وحببتها المحببة أكثر. خلف حجابها الرفيق حوله. اشغل عقله بمدى التفارب والتمارح بين لون حجابها ولون عينيها. وفي هذه اللحظة اكتشف بأنه كان ينسج. وبأن عيناها وزوجته كانا يراقبان ابتسامته نالت عن كتب بلامع مشرحة. ترى هل هذه نفس ابتسامة عادل وهو يشاهد رؤى؟
ابتسامة القبول !

تحدثت والدته وهي تنهض موجهة حديثها نحو زوجة العم وهي تطلب منها الذهاب للحمام. بإدراك شديد حصلت امرأة سريعة وهي تأخذ والدته للخارج وبعد ثوانٍ حتى الرجل يساها وركبتهما وحيدتين ولكن برفقة بعضهما البعض .

شكر هشام صنيع والدته بداخله وهو يلتفت نحو عروسه محاولاً جذب طرف حديث ما بينهما يجعلها تنظر إليه وتحدث معه. هو يعلم بأنه لا يجيد الحديث لذلك تنحج عدة مرات يعلو صوته وهو يضع كأس العصير الساكن بيده على الطاولة الصغيرة المقابلة له والفاصلة بينهما. وبدأ يسؤالها عن أحوالها بشكل جعله يبدو كأبله أو معنوه كما تقول له والدته دائماً وهي تفرعه، وعندما وجد منها إجابات تشبه

التمس إلى حد كبير، بحث عن موضوع ربما هي تحبه فيجعلها تتكلم بأريحية أكثر فاختار أن يسألها بركة عن والدها وما قاله عنها عن علاقتها القوية به، وبالفعل نجح في جذب انتباهها وجعلها تؤكد له ما أخبره به عنها من معلومات عنه، عادت عينيها تدمع من جديد عندما رأى الدموع تترقق في عينيها بخزن وهي تتحدث عن تديله لها والذي افتقدته بشدة .

ضعفها أمامه جعله يشعر في لحظة بمسؤولية خاصة تجاهها، حشوة رقيقة بصوتها سببها الدموع المملت رغبة بداحله للبحث عن إجابة سؤال ساحر طاف بوجوده .

سؤال حول لون عينيها عندما تبتسم، كيف ستكون يا ترى؟، كانت رأسها قد عادت للأسفل من جديد وهي تخفف دموعها بركة عندها سمعته يناديها مشاكساً:

- جديدة

رفعت رأسها نحوه بدهشة بالغة من جرأته، كيف واثته المرأة ليرقق اسمها هكذا بعد دقائق من لقائهما الأول!!، مسحت وجهها بكفيها وقد احتقن لونه للغاية وهو يتابع بتلذذ، مراقباً ثقل أنفاسها البادية بقوة في تسارع صدرها صعوداً وهبوطاً:

- والدك كان فناناً حقاً في اختيار هذا الاسم ليخصك به

لم تهبه عائلياً وفقاً لاعتاد هذا الشعور العربي الذي لا يغزو وهو يرى مدى تأثيره عليها بمجرد أن رفق أحدها فقط. ثم روى واحدة على الباب النصف مغلق دخل بعدها عنها ومن نظرة وحيد لابنة أخيه علم بأنها في ورطة ما. اقترب منها فوفقت باهتة على الفور وهو يحيط بكففيها متسائلاً باهتمام

- جدابيل، هل أنت بخير حبيبتي؟

أومات برأسها له وهي نفس برعيلها في العودة لعرشها على الفور. تركتها تغادر وهو يستشعر سخونة وجهها واهتزاز المذراع منه وحس يستكمل الحديث مع هشام باهتمام وحساس مدحاهلاً إلى البرق الظاهر بقوة في عينيه. وعند عودة زوجته والدة هشام بدأ الحديث بأحد مجرى آخر وتلقائي بعد أن تكلمت والدة هشام بصراحة عن إعجابها بجدابيل وزنها ولدها الواضح دون الحاجة لسؤال. في البداية كان قلق بخصوص تفاصيل الماديات التي سئلب منه وبالأخص لأنها لم تتزوج من قبل ولكنه وجد العكس تماماً والرجل يسر له ويقول له بصراحة أن يأتي بما يستطيع تحمله فقط.

وبدون أن يرى الدكتورة غير كما تقول عنها والدته دوناً شكرها بداخله عن الهدية التي قدمتها له دون سابق معرفة. " جدابيل " هدية لا يليق بها سوى تدليل كتليل والدها لها.

الروح

كان ذلك اليوم مختلفًا جدًا، مختلفًا لدرجة أن لاحظ زملاءه في العمل تبدل حاله بشكل مفاجيء، بداية من رجال الأمن على بوابة الشركة الذين لم يصدقوا أنفسهم وتبادلوا مع بعضهم البعض نظرات مندهشة عندما مر بهم في الصباح بابتسامة واسعة وهو يلقي عليهم تحيته التي غابت عنهم لشهور، أما الخمسة موظفين الذين تضمهم غرفة مكتبه بداخل الشركة فلم يكونوا أقل اندهاشًا، بل على العكس، ردوا تحيته وهم يحملون به ويتأملون هيئته الجديدة، ذقنه الحليق، ملابسه المهندمة، يده التي ترتفع بالسلام على كتف كل من يقابله منهم، يوزع ابتساماته بالعدل على الجميع، واحد فقط من الخمسة هو من لاحظ قلق دفين خلف تلك النظرات المشعة، ومن يكون سوى صديقه الوحيد.

عندما جلس هشام أخيرًا خلف مكتبه وهو يرسل نظرات ضاحكة رُغمًا عنه نحو عادل الذي كان ينهض من خلف مكتبه ويتقدم نحوه، أحنى عادل جذعه تجاه هشام وهو يربت على كتفه هامسًا بتفككه:

- هل يعني هذا أنه تم تحديد موعد الزواج؟

الثالث إليه هشام محاولاً كبح حجاج شياً، فهو لا يعلم كنهه من
بدايت سعادة نفسه، مثلاً بقوة من حلت عطائه يعلن عن نفسه
ويوضح صاحبه، وهو يرد على هشام حسنة راحلة فائلاً

- دعني الآن يا عادل وأعدك أن أشبع فضولك عندما يسني
العمل، اتفقنا؟

اعتدل عادل واقفاً وهو يرفع كلا حاحيه ويحرك رأسه ويهده يأس
من صدقته، نعم لقد تغير مظهره. بدى الأسراف على وجهه. ولكن
هشام سيقبل هشام إلى الأبد. يخاف أن يعلن عن سعادته أمام الناس.
يخشى إظهار فرحته لهم. يعتبر الحب سرّاً من الأسرار العليا لا يجب أن
يعلمها أحد. بل ولا يلاحظها من الأساس. يخاف من الحسد. أم رفا
يرى الحب ضعفاً يجب أن يوارى خلف الحجاب

في نهاية اليوم وفي هشام بوعده وهو يسير نحو عادل ويحكي له
القبول الذي شعر به عندما رأى حذيل لأول مرة. وكيف فاضله عنها
وزوجته مقابلة حسنة ومتعينة لطروفه. وكيف جعلت والده بالأم
كأسرع من سلق بيضة من دجاجة بيضة، ولم ينظر حتى أن يصلي
صلاة استخارة. وقامت بكل الانصافيات اللازمة بالنسبة عنه في جلسة
واحدة بحسب مقتد وكأنها تتراجع في قضية رأي عام. ولقد كان حذيل
عادل في محله تماماً فبالفعل تم تحديد موعد عقد القران في نهاية هذا
الأسبوع. والزفاف في نهاية الأسبوع المقبل. وهذا يعني أن أمامهما عدة
أيام فقط للتعارف. وعليه أن يجعلها تعناد عليه بعض الشيء قبل
الزفاف.

وضع عادل مجموعة من حبات الفول السوداني دفعة واحدة بقمه
ثم قال باعتراض:

- والدتك لم تقم بعملها كما يجب

التفت نحوه هشام بدهشة بينما حافلة ذات لون أحمر باهت تمر
بجواره مُسرعة وتلال من البشر يتعلقون بأبوابها المفتوحة وعادل يوميء
برأسه مؤكداً:

- نعم لم تقم بعملها جيداً، كان يجب أن تتعلم من والدتي، فلقد
اتفقت في جلسة واحدة على زفاف مباشرة خلال عشرة أيام
فقط، وتم لها ما أرادت

كاد هشام أن يُعلق ولكنه لاحظ شرود عادل بعض الشيء وهو
يستطرد بنظرات غامضة:

- ربما لأن ظروف رؤى زوجتي مختلفة، فهي وحيدة

تنحج هشام وقد أدرك للتو أنه نذل كبير، فلم يخطر بباله مرة
واحدة منذ شهر كامل، مذ أن حضر حفل الزفاف الصغير لصديقه أن
يسأله عن أحواله مع زوجته الجديدة، وهل هو مرتاح معها أم لا، فهو
يعرف عادل جيداً، إنه عكسه تماماً، يكتم الحزن بداخله ويرتدى قناع
المرح دوماً ليداريه عن الناس، أما السعادة فهو كفيل بالإعلان عنها
لكل من هب ودب، فلقد أعلن خبر زواجه على الشركة بأكملها
بمجرد أن اتفق على موعد الزفاف، بل وتعارك مع مدير فرع الشركة
لأول مرة ليحصل على إجازة لأسبوع كامل، وعندما عاد من أجازته لم

يكن يمشي بل كان يطير على أجنحة السعادة بينهم، أما ومن أيام قليلة، فقط عدة أيام لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، تبدل حاله، أصبح يشرد كثيراً، وهو لم يكلف نفسه ليسأله لماذا، حسم قراره وخصاله بعدم التدخل في شؤون الآخرين تحاربه وتسانل بحزم لم يقصده:

- بمناسبة حديثك عن زوجتك، كيف حالك معها أنت وطفلك؟

زفر عادل بقوة وقد ظن بأن هشام لن يسأله أبداً، فهو يحتاج للحديث ولكن لا يعلم ماذا سيقول بالضبط، إنما مجرد مخاوف لا يعلم لماذا تراوده بشأنها، نفص كفيه من بقايا قشر الفول السوداني العالقة به ودههما في جيبي بنطاله كعادته وقد توترت نظراته قليلاً وهو يقول:

- لا أخفي عليك يا صديقي، في البداية كانت علاقتنا جيدة للغاية ولقد شعرت بحبها لي وحاجتها لحبي، وأصدقك القول هي تهم بي وبطفلي بحب لم أكن أتخيله، ولكن في الأيام الأخيرة تبدلت قليلاً، هناك شيء ما تخفيه ولا أعلم ماهو !

رفع هشام يده يحك ذقنه مفكراً وهو يخط شفطيه ثم عقب قائلاً:

- تقصد أنها لم تعد تهم ؟

حرك عادل رأسه على الفور نائفاً وهو يجيب والحيرة تزداد بقلبه وعقله أكثر:

- لا، هي تهم بلا شك ولكن، تخفي أمراً ما عني، منذ أيام خرجت ولم تخبرني تاركة طفلي عند والدتي، وعندما سألتها بحدوء ثارت

بدون مرور واتهمني بأنني أحسهم بالبيت وأراقب خطواتها
كالجنونة.

- ألم تعرف إلى أين ذهبت؟

ودون أن يحببه توقف فجأة أمام دكان صغير زجاجي يعرض أنواع
شقي من الزهور وابتاع منه باقة ورود صغيرة مختلفة ألوانها، جمعها له
البائع بمهارة وسرعة بداخل عقدة حمراء اللون زاهية، دفع عادل ثمنها
وهو يتأملها برضا، وعندما خرجا ليتابعوا سيرهما، استكمل عادل حديثه
وكانه لم يتوقف قائلاً:

- المشكلة بالنسبة لي ليست أين ذهبت، أنا أثق بها وأعلم أن
النساء تحتاج أحياناً إلى التسوق بعيداً عن سأم الرجل السريع،
المشكلة أنها تضع بيننا المسافات والحواجز وتُخفي الأمر عني،
أصبحت تشرد كثيراً وعندما أسأها تنهرب مني

نظر هشام إلى باقة الزهور بيد عادل وقال ساخراً:

- وهذه الزهور رشوة بالطبع لتبوح بما تخفيه

ضحك عادل بخفة وهو يرفع الزهور يستنشقها بقوة ثم يردف
مبتسماً:

- نعم هي رشوة بالفعل، ولكن لأمر آخر، لأنها طلبت العودة إلى
عملها اليوم صباحاً ونحن نتناول الإفطار سوياً وأنا رفضت
فغضبت مني، حاولت مصالحتها والتفاهم معها ولكنها أوصدت

باب غرفة النوم وحلفت من خلفه بطفولية بأنها لن تخرج حتى
أرحل .

سكت هشام تماماً وهو يتنهد بعنف وهو يسيل أهدابه حتى كاد أن
يصطدم بالعجوز الذى مر بجانبه، وبدخله بحمد الله على أنه سجد
أحمد بعدم الموافقة على الزواج منها، ماذا لو كان تزوجها وقلت حبه
إلى جحيم لتعود للعمل مرة أخرى كما تفعل الآن مع عادل وكما فعلت
هالة معه من قبل .

توقفت أفكاره للحظات عندما ففرت ذاكرته إلى هالة الراحلة، التي
قامت بنفس العاصفة عندما رفض أن تعود لعسلها بعد الزواج، ولكنه لم
يأت لها بزهور، تركها تغضب وتصبح كال يوم وعندما سنم أخذ يادف
صياخا بصياح وشجارا بشجار واستحالت حياتها إلى جحيم فعلي لم
يُخرجها منه إلا حملها بالتوأم حتى ولحين .

لكره عادل بكشفه ليعبر معه الطريق سريع ويهبطا إلى أقرب محطة
مترو. وعندما وقفا على الرصيف فى انتظار القطار القادم، نظر هشام
نحو عادل وقال وكأنما يتحدث إلى نفسه:

- وهل تعتقد أن الزهور تأتي بتنانج مع امرأة عنيدة، فصممة على
ما برأسها

ابتسم عادل وهو يعلم بأن هشام فى هذه اللحظة لا يتحدث عن
رؤى، إنما هو عالق فى ماضيه، فمال باتجاهه قائلاً بخفوت:

- المرأة لا تكون عبدة إلا عندما يهملها زوجها يا هشام. تريد
لفت انتباهه بعندها كما يفعل الأطفال. لذلك أنا على يقين بأن
تريد العودة للعمل لا للعمل نفسه ولكن لأها شعرت بالضعف في
الأيام الماضية وبدأ اهتمامي بها يساقط.

ورفع باقة الزهور أمامه وهو يتابع شرح ماكر

- وباقة الزهور شدة قليلة بالأمر. مع كوب من غول غير عصف.
ورشة من شطف رجل بامره لا نستطيع أن تصده. وهكذا
أستطيع أن أكل ضاهاها هيا مربا !

يوقف القطار فقصي على الحروف المنقوية من حديثه وتخفى جميع
الناس على محطة القطار وعندما توقف أمامهم بفرد طوله على الرصيف
الطويل وفتحت أبوابه ألدفع الناس إليه. لدرجة أن من يحاول الخروج
ربما يدخل مرة أخرى بقوة الدفع. هذه القوة البشرية هي التي دفعت به
هشام للداخل بضحية عادل ولكن عقله كان وحيداً تماماً. منفصل
بالكلية عما يحدث من حوله. والتساؤلات تدور بذهنه بلا توقف. لماذا
كان يقين زوجته لا فائدة منها. ولماذا لم يلجأ إلى ناصح أمين كعادل له
خبرة في التعامل مع المرأة. ربما كانت مشاكله قد خلعت معها. كان يرى
حياته معها بمنظور واحد. منظور متجمد. لو قدمت الدنيا حوله لن
ينظر لها من غيره. ولن يحيد يميناً أو يساراً. ربما كان سيجد باباً آخر يلج
منه إلى نقطة تفاهم مع شالمة. كان دائماً يحاول فتح باب خلفي. بينما
الباب الأمامي فُشّر على مصرعيه !

زحاث مطر خفيف تصابق واحدة بعد الأخرى فوق سطح رجم نوافذ السيارة المؤجرة. فلاعب المساحات الأمامية فما وتحدثت ر نستطع نحوها بسهولة. بينما طرفاتها الخفيفة المتناعبة ترفع ربه البيضاء معلقة المزمعة أمام قوة ضربات قلب حديد الساكنة على المقعد المجاور ل همام وهو يفوردها إلى يده. إنما الحب صوت تلك الطرقات الهامسة على الزجاج المجاور لها. حيلة العام تنظر الشتاء تسكت فما لها من خلف نافذتها المغلقة وكان بينهما حيلة ما. تنحرف بعضنا بالصوفي الثقيل ونعوض عيناها. "المطر" نام على ريشه الهادئة كوضع فوق ساقي والدته وبين ذراعيها مسرحا بحسده فوق صدرها وهي قد هدده بلحن يعتاده يوميا. ما بالها الآن لا نستطيع أن نسمع له وقد ذوى صوته وتراجع خلف نبض خافتها الذي يصح بين أصلعها بصعوبة مؤلمة، خوفاً، قلقاً، أو انتظاراً !

لو كان الإنتظار يقتل لقتلها في اليوم. لماذا ضاقت المساحة الفاصلة بينهما بداخل السيارة هكذا، تكاد أنفاسه الثقيلة بصحبة عينيه المتعلقة بالطريق تبثع الهواء بالكامل بداخل السيارة الفارقة بحسا في اللازمان. تكفي شحنات التوتر التي لازمتها منذ بدأت منحنيات الطريق بشير إلى اقتراب منزله، متى سيصلان وينتهي الأمر لتبدأ رثتها في التنفس من جديد .

كان يلتفت نحوها بطرف عينيه بين دقيقة وأخرى ثم يعود لينتج الطريق مجدداً. يكاد يسمع ديب أفكارها المشتتة بوضوح، تشي لها بشرتها المقلبة الألوان بين الوردي المحبب والشحوب الشديد، وهي

تتابع بعينها حيات المطر، بداية قوية لشتاء يعده بالكثير. أحياناً يذكرنا
الشتاء بما فقدناه، أو ربما بما كنا نملك ذات يوم !

لقد فعل كل ما بوسعه في الأيام السابقة ومنذ أن عقد قرانها
ليجعلها تعتاده كخطيب وزوج، جلسات مطولة بينها وبين بناته. كانت
لها نصيب الأسد من الزيارات العائلية وقد كان يترك لها مجال الانفراد
بالفتيات وحدهما لفترة طويلة كما طلبت منه ليعتادا على وجودهما
معها. كان يفرح باهتمامها بهما وخصيصاً أن قالت له والدته بفخر
ذات مساء:

- جدائل قالت لي أنها قد اشركت في دورة لعلاج ناخر النطق عند
بناتك

خجلها المتزايد لم يكن يترك له فرصة سوى بعض المكالمات الهاتفية
التي كان معظمها من نصيب والدته. والدته التي كانت شريكاً أساسياً
في اختياراتها لأثاث بسيط. تحمل أركان شقته من ثلاثة أيام فقط. أصر
هشام من البداية أن لا يعيشان مع والدته بشقتها. ولم تمنع الأخيرة أو
تعرض وكأنها هي أيضاً أصابها حمى الخوف من تكرار الماضي.
فأحضرت امرأة تعرفها لفتح شقته وتنظيفها حتى صارت جديدة براقية
وباعت جل أثاثها القديم، لتتأنق الشقة بأثاث جديد للعروس القادمة
على استحياء. ها هي قد أوشكت على التخلص من هذا العبء
الثقل ورميه على أكتاف أخرى. بداخلها يعرف بأنها شاركت في تعاسة
ولدها مع هالة. ضميرها يؤلمها ويحثها على عمل أي شيء لتراه سعيداً
مستقراً مرة أخرى، فكل شيء مباح في الحب والحرب !، والآن تنف

بانتصار في صدر الشقة وأمام بابها بعد أن وضعت طعنه الغند
للعرسين

وجبة فاحرة تركت من أجلها حبل المرواح الصغير الذي لم يحضر به
سوى المظربون فقط. حتى عادل حصر وحده واعتذر عن عدم حضور
زوجته لمرضها. وجعلت ابنتها وزوجها يتدأها بسيارتها إلى المنزل
لتعدها كما يحب. وتضعها في شقة ولدها قبل وصوله هو وعروسه

استمعت إلى أصوات أقدام وحفيف لباب القبلة تصعد السلم
فتحركت على الفور تجاه باب الشقة المنصوح من البداية لتستقبل
أمامه قبل دخولها. كان المطر قد نال من ملابسها فابتل فست
الغرس الأبيض ولم تسخ خلة هشام من البطل الدم وقد خلع ستره
بمجرد أن خرج من سيارته ورفعها فوق رأسهما للحماية قدر
المستطاع من الماء. أقبلت والدته هشام كمن حذيل ولحنينها وقد
دمعت عيناها بكثرة وراحة عندما بدلت هشام الاحضان وهي توصيه
بعروسه. ولم تنس أن تلذعه بلسانها قبل أن تعذر هاتمة في أمه

- أرفع رأس أهلك يا ولد

تركته والدماء تغلي في عروقه بسببها وهبطت للطابق الأسفل
لشقتها حيث ينتظرها فراشها الدافئ بخوار الفتاتين الداليتين في فراشها
منذ أن حملهما زوج ابنتها من سيارته ووضعتهما في سريرها وانصرف هو
وزوجته دون تقديم عرض مبتذل عن اصطحاب البنات معهما ولو حتى
لحفظ ماء الوجه. ولما يفعلان؟ وماذا لو وافقت؟ لا... الأفضل ألا
يتدخلان من البداية كما هما دوماً !

جاءت جدائل فستانها القبل بفصل الفلن وهي للبح الدخول به
نس نظيف جذانها جيداً قبل الدخول يساً تعبا هو معك إلى
جلده مدود. وقف بجانبها بلفظ القاسم وبرافها وهي تتحول بطرف
بين أركان صالة الاستقبال بنسج وكانها تهاكد أن كل شيء مكنه دوماً
كما وضعته أول أمس. انقسم بخمسين وهو يدعوها لتجوس فيها
ولكنها قالت بحجل وهي ترفع ديل فستانها عن الأرض

- سادجل لأبدل فستاني أولاً. ديل الفستان مثل وقد غرق به
الزباب وأخشى أن يفسد السجاد أكثر من هذا

أوماً ظا موافقا برافه وهو يسحب فخرجا دون سب واضح. حلع
جذائه وتركها تدخل غرفة اليوم يساً تقدم هو فاصداً أول مقطع أمامه
وجلس وهو يرجع الظهر للدخول نفسها عبيد محاولاً الاسترخاء قليلاً
وتجميع عبايد أفكاره المندفعة بكل النود بعقله. اليوم كان فرفها جذاً
له. اضطر إلى عمله صباحاً لعدة ساعات قبل أن يذهب بعد مداوات
عدة لمحاولة الحصول على أحارة رواح لأيام. والتي لم يستطع أن يحصل
منها سوى على يومين فقط يليهما يوم الجمعة والسبت. أجازة طويلة
بالنسبة له لم يحصل عليها من قبل سوى في الأعياد

هل تأخرت جدائل بالداخل أم هو فقط يتوهم. أم لعله يشاق!!

زفر وهو ينهض واقفاً لا يدري ماذا يفعل. أخذته قدماه دون إرادة
نحو غرفة بنات المعلقة. فتحتها برجفة دقيقة لا يعلم سببها ودخل وبده
تسوق قدميه وترفع تلقائياً نحو زر الإضاءة كعادته. وقف يتأمل الغرفة
النظيفة حوله بذهن شارد ويداد تتدفق بحبي بنطاله. يشغ بالاشتياق

الشديد لأول مرة بحياته. هل لأها عروس جديدة؟ ولكن لا. لقد تم
 بنشر هذه اللهفة لرؤيتها وللحديث معها في كل مرة يذهب لزيارتها. أو
 ثاني هي لوالدته. في كل محادثة هاتفة كان ينذرع بأي موضوع للخط
 الحديث معها ويسمع صوتها أكثر. فهي خجلة جدًا. يراها غامضة. هل
 يكون هذا هو سبب شغفه. كونها غامضة عليه. لا تتحدث بالكثير. لا
 تثرثر. مازالت كتابًا مغلقًا مدون بلغة أخرى غير لغته

" ألم أقل لك " !. عبارة رن صوتها خاطره جعلته ينفض. ويتراجع
 للخلف بظهوره حتى خرج من الغرفة و يسحب يدها معه ليغلفها فخذًا.
 يرى حروفها ترسم بعقله وقلبه معا. وكأن أحدا ما يشاركه قلبه وعقله
 ورأى ما يدور بها فأجابته على الفور بكلمة مجرد حروف ولكنها صاخبة
 جدًا. ضح بها فؤاده. " إذا تزوجت بأخرى غامضة صامتة ستصبح
 شغوفًا بها. على عكسي " !. مرر كفه على خصلات شعره وأصابعه
 تنغرز فيها بتوتر شديد وكلماتها السابقة له تسحق ضميره سحقًا وتذفقه
 بها سماء عينيه .

- هشام !

استدار سريعًا للخلف وأحدا به ترفرف بقوة وكأنه يجبر عقله على
 الخروج من ذكرياته ليرى من تقف أمامه في هذه اللحظة. ليستعيد
 حاضره. أطرق للحظات وهو يحاول تهدئة أنفاسه المتصارعة بصدوره ثم
 رفع رأسه نحوها مبتسمًا بمرح زائف ويسألها:

- هل تُخططين لقتلي جوعًا ؟!

ابتسمت جدًا وهو تطرق برأسها هامسة:

– آسفة، تأخرت بالفعل

تأملها قليلاً قبل أن يُشير نحو الطاولة ذات السطح الزجاجي والبيضاوية الشكل التي تتوسط المقاعد الذهبية اللون وقد وضعت فوقها والدته صينية ضخمة مستديرة مملوءة بالطعام. تحركت جدائل بين المقاعد حتى اختارت واحداً وجلست فوقه بخفة. بينما جلس هو قبالتها والطاولة تفصل بينهما وبدأ يزبح الستار عن الطعام الشهي والصمت يعتلي اجتماعهما المنفرد هذا لأول مرة ويفرض سيطرته. لم يكن لأحد منهما شهية كبيرة فهبطا من جلسيتهما تلك بعد دقائق معدودة وهو يدعوها ليصلي بها ركعتين وهو بداخله يتسنى أن تقضي الصلاة على توتره وتشتت أفكاره هذا ولو بعض الشيء. وبالفعل بدأ الهدوء يعم فليتهما عندما وقفت خلفه وكرر هو للصلاة. كان يحاول جاهداً أن يركز كل تفكيره في الكلمات القرآنية التي يبلوها بينما شيطانه يجذبه نحو ذكرى بعيدة. خربت فيها حالة من هذه الراحة النفسية التي تناسب الآن بين هشام وجدائل. فلم يكن لأي منهما دراية بتأني الركعتين الخفيفتين وقد انتهت هما الليلة الأولى نهاية درامية للغاية، أعقبتها تدخل سافر من والدته في اليوم التالي قضى على الكثير من فرحتيهما بأولى أيامهما سوياً

تركها لدقائق بعد الصلاة ليبدل ملابسه خارجاً ثم عاد إليها وبداخله حماس لأن تكون هذه الليلة مختلفة عن ما عاشه من قبل، وفي الصباح لن يسمح لوالدته بالتدخل وسيقف لها بكل جسم إن حاولت حتى. لن يُفرض كما فرض مع حالة .

عندما عاد إليها كانت تقف امام المرأة الكبيرة تُعدل من مظهرها
بعد تخليها عن ملابس الصلاة

فوقف حائلاً بينها وبين المرأة مما جعل التوتر يعود إليها وتطرق
برأسها أرضاً .

- جديدة

عندما ناداها مُداعباً لم ترفع رأسها ولكنه استطاع أن يرى ارتعاش
جانبي شفثيها ربما بابتسامة صغيرة، أمسك بكفيها وقبلهما بركة هامساً
محاولاً استعادت جميع الدروس المُستفادة التي أخذها من عادل طوال
الأيام السابقة:

- أشعر بمشاعر مختلفة لأول مرة بحياتي، لأول مرة قلبي يتنفض
شوقاً عندما أقترّب من امرأة، حقيقة أنتِ تمنحينني الكثير، أكثر
مما كنت أتخيل أن أشعر يوماً

لأول مرة!، همست بحيرة دون أن ترفع رأسها وهي تحاول جاهدة
السيطرة على ارتعاشاتها المتواصلة:

- أنت كنت متزوج من قبل !

أرسل تنهيدة طويلة وقد انتقلت حيرتها إليه ربما عبر أناملهما
المتشابكة الآن والتي يضغطها برفق بين أصابعه:

- نعم، ولكن صديقي، أنا أحيا معكِ مشاعر تطرق باب قلبي
لأول مرة

ارتعاشة أخرى لاحظها على جانبي شفيتها فأراد أن يرى الابتسامة بوضوح، يريد أن يستمتع بمزيج مشاعرها مع لون عينيها المميز وهي تبسم لعينه عن قرب، مد يده أسفل ذقنها ليرفع رأسها إليه، رفعت عينيها المتوترة المهتزة في البداية نحوه بصعوبة وهي تجاهد لأن لا تنظر في عينيه مباشرة، رآها تحيد بعينيها جانبًا نحو المرأة من خلفه وفجأة امتنع وجهها وشحب كالأموات، وصرخت وهي تندفع للخلف بقوة وتعتبر وتسقط أرضًا بعد أن اصطدم ظهرها بالحائط من خلفها، ملامح الرعب التي ارتسمت على وجهها وعينيها التي تجمدت على المرأة جعلته يتصلب مكانه للحظة وهو لا يستوعب ما حدث، ابتلع ريقه بصعوبة عندما أفاق من صدمته وهو يلتفت خلفه، لا شيء!، المرأة تعكس صورته بشكل طبيعي جدًا، عاد برأسه إليها فسقط قلبه بين قدميه عندما وجدها قد غابت عن الوعي .

لحظات عصبية مرت به وهو يحاول إفاقتها بعد أن حملها فوق الفراش وغطاها جيدًا وهي لا تستجيب، وأخيرًا بدأت تتأوه وترمش بعينيها مرارًا قبل أن تفتحهما بشكل كامل، نظرت إلى وجهه المتهلّف القريب من وجهها للحظة لا يدرك عقلها بعد ما حدث، وفجأة استعادت ذاكرة الدقائق السابقة دفعة واحدة، فصرخت من جديد وهي تنظر نحو المرأة، ضمها إليه بقوة وهو يحول رأسه نحو المرأة لثانية ثم يُسيطر على انفعاله بها ويحاول تهدئتها بينما تمد يدها باتجاه المرأة مرتعشة وهي تهتف بصوت مبجوح من الرعب الشديد المُسيطر عليها:

- زوجتك، في المرأة

عاد بضمها بقوة أكبر إلى صدره من جديد وهو ينظر ثانية إلى
نسيم ويقول بصوت لم ينجح في إظهاره متعاسكاً:

- لا شيء حبيبي، أنت تتوهين

حركت رأسها المضمومة إلى صدره بقوة رافضة وهي تصيح:

- لا، رأيتها، كانت تبكي يا هشام، أنا متأكدة

تسبح لا ليحلي صوته بل لطرد تلك القشعريرة التي دبت بجسده
بشدة وقد فشل في جعل نبرته هادئة. كاد أن يسألها وكيف تعرف شكل
زوجته السابقة ولكنه تذكر في اللحظة الأخيرة أنها رأت صور عدة لها
بصحبة جنى و لجين عندما كانت تحضر لزيافتهما في شقة والدته. لا يعلم
ماذا يفعل. التوتر يفرض سيطرته على جسده والبرودة تتسلل إليه بمكر
بشفة صوبه. هو الرجل، ويجب عليه تقديمها حتى ولو كان مرتعباً وهو
لم يَر شيئاً، فكيف لو رأى !

- حبيبي، اهدئي أرجوك. أرى حتى قليلاً أنت فتية فقط

كان يشعر بصدرها يعلو ويهبط بخموض وجسدها الذي بين يديه
ينفطش بقوة ويكادها يعلو شيئاً فشيئاً وهي تفسق بلوعة وخوف:

- كانت تبكي يا هشام، ولكن ليس دموع، كانت تبكي دماً !

ماذا يفعل؟! بضمها بقوة ولكن عينيها تدور حوله. يُقنع نفسه
بصعوبة بأنها قددي بالفعل وهو يهضم بآية الكرسي ويمسح على شعرها
بیده الأخرى. وقعت عينيها على هاتفه الموضوع فوق المنضدة الصغيرة
جانب القرائن ضد يده وهو يميل بجذعه يمينا حتى استطاع أن يلتقطه.

مرر أصابعه فوق أزراره دون أن يفلتها حتى صرح منه صوت الشيخ
أحمد العجمي بتلو سورة البقرة. وضع الطائف بجانبها وعدل من وضع
جسده وهي تنسبث به أكثر حتى استطاع الاستناد بظهره إلى ظهر
السريه جاذبا الغطاء حوله هو الآخر يتدثر به معها وهو يمسس لها بأن
كل شيء سيكون بخير وربما هو الخوف من ليلة الزفاف هو من جعلها
تري أشياء لا وجود لها. أغمض عيني به بصعوبة عندما هدأت أنفاسها في
صدره محاولا إقناع نفسه بما كان يقنعها به منذ قليل !

قضى نومد بين أحلامه المعبدة له والتي لم تسمح له بالإنسلاخ منها
إلا بعد أن تسرب إليه رائحة ذمخ قريب من أنفه. هناك شيء ما
يحترق !. انتصب فجأة في مكانه جالسا فوق سريه وعقله يجاهد
صحوته المفاجأة. ولم تكن عليه بالحل معاهدة من عقله وهي تحاول بكل
الطرق إحتراق سجادة الدخان الكثيفة المصطبة به والتي تملأ الغرفة
بالكامل. فتر من فوق الفراش هاتجا بأصيحيا وهو يخرج من باب الغرفة
باحثا عنها. مخجود جروحه من العرقلة اصطدم بجسد امرأة لم يتبين
ماتحتها ولكنه استطاع تميز صوتها وهي ترحل باسستياء:

- انتبه خطواتك يا معنود

سعل بقوة محاولا كتم أنفاسه المصنفة وقد بدأ عقله يتميز الرائحة
وما يحدث حوله. وهو يسألها متبرعا:

- أمي، ما كل هذا البخور، هل تنوين حرق المنزل !

ما زالت تمسك بالسلسل الكبير المتدلي منه المبخرة الدائرية. وتترك
يدها به حركات دائرية وهي تقيمه بجديّة:

- هذا بخور الزّ با ولدى، يدفع عن المنزل العفاريّ والأرواح.
زوجتك حكّت لي ما حدث لها بالأمس عندما أتيت إليك في
الصباح. وهي الآن في الأسفل بصحبة بناتك
نعمت حديثها بأن ظلت تفلّ حولها وهي تسمو:

- انصرفوا، انصرفوا

ثم بقوة وهو يعود إلى الداخل محاولاً إلقاء أية ملابس من الحجرة
ليدها عذامته ويهبط إلى شقة والده ليطلب روحه. طرقت الباب بقلق
فاستمع إلى وقع أقدام صغرة تتساقط نحو الباب مصحوبة بصحج
بعرفه. فتح الباب واندهشت للفتاة نحو سائلي بلطف، كل واحدة
منها تلتصق ساقاً وتدفع أجنحتها بعيداً. اتجه إليهما وحملتهما إلى
الداخل وهو عليهما تعلقاً الباب عذامته وعينه تبحث عنها حتى
وحدهما خرج من الممر الصغير المؤدّي للمطبخ ليحمل ليدنيا صحن
فاكهة صغير كانت تعدّه للفتاتين. رفعت وجهها نحوه وهي تردّ نحيبه
بأسامة حبيبة حرجولة ولكنّها مسرّعة حتى وضعت الصحن على
الحاوية الخشبية العظيمة ثم التفت إليه وركبه وهو يصيح حتى على
الأريكة يساكن نحو تمسك بفرجه وهو يحاول إقناعها بأنه سيحملها
مرة أخرى بعد قليل حتى واقفت على لركه أخيراً. تساقطت الفتاتان إلى
الحاوية حيث صحن الفاكهة يساكنت هو عبيده في عينيها وهو يتقدم
إليها. وعندما وقف أمامها تدان بأذنه فالتفت نحو الخارج باله

عقد حبه مسانلاً بمعجب شديد

- إلى أين ؟

ملأت رثيها بالهواء وقد ظهر الإنشراح على قسطنطين وحبيها وهي
تسمو ابتسامة خلوة ونجيبه:

- إجراءات السفر يا بني، العسرة، هل سميت؟ مسافر بصحة
أحبتك وزوجها !

لمس كنفها لحنان وهو يقترب منها وقد تسمنت أفكاره أكثر وأكثر.
وبدى كالتطفل الذي لا يريد فراق والدته وهو يقول باعتراض:

- لقد كنت أصغر عليك كثيراً لإتمام الإجراءات وأنت كنت تؤجلين
الأمر، فلماذا الآن؟

- كنت أريد الإطمئنان عليك مع زوجتك يا ولدي، وها قد
تزوجت والحمد لله. وأحبتك وزوجها سيذهبان للعرة خلال أيام فلماذا
التأجيل وأنت تعلم كم اشتاق للذهاب معاً فترة طويلة. فلم يعد في
العمر بقية .

أعصر قلبه وهو يرى دمع الشوق بحبيها، لا يستطيع منعها. هو
أكثر شخص يعلم مدى اشتياقها للسفر إلى مكة، هذا الشوق الذي
جعلها تعصر على نفسها لسونة كما تقول دواما لمسافر بصحبة زوج
ابنتها الذي لا تطيقه، وكيف تطيقه وهي لا تطيق ابنتها من الأساس.
الحمد لله أنها تطيق نفسها أصلاً !

عندما صعد إلى شقته ومعه زوجته كان متربصا بعض الشيء وهو
 يتلفت حوله بعينه فقط كي لا يثير انتباهها. أما في الظاهر فلقد كان
 يبدو مرخا وسعيدا ليثها الإطمئنان اللازم. ربما كان خائفا قليلا
 ومتوترا. ولكن سحابة الشوق انزوى خلفها بقية المشاعر الأخرى وهو
 يعيش تجربة أخرى يظللها الشغف كما لم يكن من قبل. كرفيف لأجنحة
 عصفور صغير وهو يستعد للتخليق للمرة الأولى راهبا منتشيا. يسحب
 نفسه ببطء وعمومة من بين فكي الماضي. بداخله يهس لها بصمت
 مطلق. طهرني من أفعالي السائفة معنا. أمتحني صكوك الغفران.
 غشيني بالأبيض. بينما تضح خلابات وعروقها كلها نابضة بصخب. لا
 يسمع مناجاته سواه

هكذا يكون الشغف إذن ؟ !

مضت الأيام التالية هادئة وسعيدة. سرقت الإجازة على الإنتهاء. إنما
 قصوة للغاية. كس نادوا حيوات المفضلة وقبل أن يأكل ثمن منه
 مشقة. إنه اليوم الأخير قبل العودة إلى العمل والإنخراط فيه مجددا.
 استيقظ من غفوته عندما أصر رنين الهاتف على ألا يتوقف حتى يجيب.
 فتملأ في فراشه الدافئ. فما وجد بدو يلتفت هاتفه عجيبا بنبرة ناعسة. ومن
 يكون غير صديقه عادل الذي لديه القدرة على بعثرة خططه دفعة
 واحدة. حماسه المفرط وهو يدعو لزيارة عائلية تتعارف فيها زوجتهما
 إلى بعضهما البعض ربما تصيران صديقتين مثلهما .

حاول هشام الرقص فلقد كان يسوي قضاء اليوم بالمرحى كعادته
ولكن حماس عادل كان مشتتاً أكثر مما يجب مما دفعه للتسليم في
النهاية والمواقفة .

رحب عادل بصديقه بفاودة وهو يستقبلهما عند باب شقته . إذ
يسى أن يلتقى نعيمة خفيضة ترحيلاً بزوجة صديقته دون أن يخطر في
باله أن يكون عند باب الشقة المعلق حلقتهما بينما أقبلت رؤى
تُرحب بصيوف زوجها وهي تحمل الطفل بين يديها . وعندما انفتحت
عينيها بعيني جدائل للمرة الأولى استطاع هشام ملاحظة شدة نور
سرت بينهما بشكل خفي . انخفض هشام بسرعة وهو يسير بصحبة
عادل للداخل وقد أيقن في السر من بقرينة الغامضة نحو جدائل أن
رؤى لم تنس له أنه رفضها في يوم من الأيام . يسا قبل جدائل . انظر
في النهاية إلى أن يومئذ برأسه على المواقفة وقد دعيتها رؤى
للجلوس في الغرفة الأخرى لتجلسا بحرية أكثر بعيداً عن مجلس الرجال .
مرت دقائق متوترة بأفكاره وهو يحاول حلقه التذكير مع صديقته
والاستجابة لدعائيه ببعض الإسهامات الطويلة . بينما ذهبه في مكان
آخر والتوقعات تتلاعب به عما يحدث في الداخل الآن . ترى هل
ستخبرها بأنها كانت عروساً مرشحة سابقة له من قبل والدته . هل
ستقول الحقيقة بأنه رفضها دون أن يراها حتى أم ستقلب الموازين وتفسر
برأس جدائل حكاية خيالية تحفظ بها ماء وجهها . وتبعضر بما صفاء حياته
الوليدة معها ! . استطاع بالكاد أن يلتفت لسؤال عادل عن أحواله مع

زوجته فأولما برأسه وقد راودته سعادة خفية منذ كثر الأيام الثلاث
السابقة ولكنه ما لبث أن قطب جبينه وقد أصرت ذكرى ليلة الزفاف
وما حدث فيها على العبور بذهنه لنشئته أكثر وتعمكر عليه سعادته.
لاحظ عادل عبوس جبهته قليلاً فوضع كفه على ساق هشام وهو
يسائل عن سببه باهتمام، زفر هشام للحظة مخرباً بعض انفعالاته
السلبية التي تكدرت بفارها فوق أيام غسله الأولى معها وهو يتسم
بغفوت:

- ليلة الزفاف حدث أمر غريب

أرسل عادل سمعه وهشام يميل نحوه ونص عليه بكرة علاها القلق
وعند حده وكذلك يراها نورة العري أثناء غيبة الآن، وما أن انتهى حتى قال
عادل وهو يستند بظهره للحائط والقفح حاحيه وكأنه وجد الأمر أيسر
فما كان يقطن:

- غلبت حوى بآلك قمت شغل سورة البقرة بخواركنا، فحتى
وان كانت نومه شجعة حولها انطرح رما من ليلة الزفاف وهذا
ما اظنه، فهي سمعت الإضمان والراحة في المنزل لثلاثة أيام
متواصلة

ثم تابع ساحراً وهو يتحرك رأسه كالدروش:

- ودون الحاجة إلى شغل اليهض والحجر الذي قامت به والدتك في
الصباح

ضحك هشام دون من حقيقي وهو يلقي نظرة للداخل بطرف عينية وعقله يعمل بطاقة قصوى ليجد سبب يجعله يتذرع به لينادي زوجته ليطمئن عليها أو حتى لينصرفا في الحال، لقد مضت ساعة كاملة وهذا يكفي، بل يكفي جدا في الواقع !. أضاعت فكرة ما بعقله دون ترتيب فطر إلى ساعته وهو يطلب زوجته فمازال أمامهما تسوق طويل في أحد متاجر ملابس الأطفال قبل أن يعودان إلى المنزل لينام باكرا وقد انتهت أجازته وحن وقت العمل .

منذ أن غادرا منزل عادل وهو ينظر إليها من وقت لآخر متمعنا في ذلك الشحوب والنور الذي كسى وجهها منذ أن خرجت من الغرفة الداخلية تصحبها رؤى، ياترى ماذا قالت هذه الرؤى لها جعلتها شاحبة هكذا. تناول كفها بين أصابعه وهو يسر بخونها فلاحظ ارتعاش كفها وبرودتها الشديدة. لم يعد يقدر على الصمت أكثر من هذا. يخشى المواجهة ولكن لابد منها ليعلم ما يدور برأسها نحو

- أصابعك باردة جدا

وكانت قد جذبتا من فوق حافة جبل فلح تسلسله بصهوية وهي تحبس أنفاسها خشية السقوط. فسمع شقيق عفيف ثملا به رنتها ثم تجيبه بأرنالك خفيض ولون الحياة يعود لوجهها بعض الشيء :

- أشعر بالبرد، قليلا

- هل أنت متعب. نذهب للبيت على الفور؟

حركت رأسها نفيا محاولة استعادة بعض الحواس لتعطف به صوته
حتى لا يشغل بشيء فبساتها. وهي تفتش السؤال. لا تريد الحوص.
لا تريد بشدة فاجابته:

- لا.. الصغيرتان ستنهجان بشدة إذا فاجدهما بالملابس الجديدة.
ربما هذا يحسبهما للعودة إلى الروضة مجدداً وقد انقضت عليهما
الأيام الماضية

عندما دخلا إلى متجر ملابس الأطفال وقفا للحظات عليهما
تطوف بالمكان بسهولة. فالمسحر كبير وكل ركن به يحوي نوعاً مختلفاً من
الأثواب. حسب تصميجه. ولفتت عينا جداول على ركن فميز باللون
الوردي الزاهية والأبيض المتداخل معها بلقنة انوية خاصة. فتقدمتها
خطواتها دون تفكير وقبل الخطوة الثالثة وجدته يجذبها برفق من مرفقها.
وعندما استدارت إليه وجدته يشير إلى ركن آخر يطفئ على ألوان
ملابسه اللون الأزرق والساوي. وقبل أن تتحدث أخذها نحوه ووقف
يختار تصميم مناسب للصغيرتين. عثر سريعاً على مبتغاه فأمسك
بفستانين بيديه وهو يشيرهما أمامهما قائلاً بخساسة:

- ها .. ما رأيك؟

نظرت إلى الفستانين بإحباط وهي تخط شفتيها بعدم رضا وتقول:

- إنهما لا تحبان اللون الأزرق، الوردي والأبيض يليقان هما أكثر

وكذا في حال خيبة، طوى الخوف على ساحة وهو يبحث بحيرة
لعمل ليلتهما وهو يقول معللة

- الأبيس والوردني يسحبان سرهما، أنا أحمل المصالح
ومصلحت

رأت العامل يقترب أكثر فقامت سرعا باعترض

- الأمر لا علاقة له بالمصلحة، بل بالاحسان السرور عاتبها، ول
انسحبا فانا المسؤولة عن تنظيفهما لا أنت

وقف العامل قبلهما فسجد سلام التوسى بعصية يوحنا ما وأمره
بأن يعلقهما وعندما انصرف العامل انفتحت عوفا وهو يقول بحسب

- جدائل، أنا لا أحب الحداد في الشارع، الناس تنظر إليهم.
انتظري حتى نعود للمنزل

- انتظري حتى نعود للمنزل أ. أهل سيحسب الناس رفقها إذن ١١

وعندما وقف أمام الخربة وهو يخرج منضمة وفتحت عوفا حوافة يبدو
انها تحطت السبعين وربما أكثر. رفعت العجوز يدها وباحتها حركت
نظارها الطيبة حتى سقطت على أنها ثم رفعت رأسها نحوه وعندها
تنظر إليه من فوق عوفا كما جاذب نظره إليها. عدالت إليه قليلا وهي
تسب بصوت بعض بالسخرية المخلوطة ببحة مميزة:

١ - أنت الوحيد الذي تستمتع بهذا العالم المصطنع لا أظن
بوجود من يشاركك في ذلك

٢ - أنتك هذه وهي المذبح لمن يتشوق الى الحرية نظر في هذه
البحر المتصريف المتصريف وهي ترى لك عذابه الأحرار

٣ - يا بني استمع الى حفيفكنا ونحن في، فاحسب ان الحرية لك
باعتك وباعتك

٤ - لو كنت تريد هذا المصائب مع عذوبة تنكر حقه يرفع من
حسب من العذابات القديسة المعلقة بها الدباب، سيما هؤلاء يسلم
في هذا حال حيث يجرى امر ايها انك انما تنجز كالحجاب

٥ - هذه المذبح هي وجه هذه الدنيا المصطنع لا هذا دعوى ان
هذا وهي مناسبة في حيا

٦ - لا بأس في أخرى أفضل، هذه تنكر سريعاً

٧ - لا تنكر لا تنسب كيف الدليل عليها، هذه يجرى

٨ - قلت لا، ما اعزته فما مناسب أكثر

٩ - هشام، هي من تنقلب يا لا أنت !

١٠ - هاهنا لا أحب النقاش في الشارع، أنت تعلم ذلك

١١ - هشام، هشام، هشام، أنت، مالك عليك اللعبة !

انفض جسده وذهبه يعود لواقعه من جديد بخلاف عامل الخربة
وقد نفذ صبره:

- سيدي، أنت تسد الطريق على من بعدك، هل ستدفع أم لا؟

تحرك جسده بعيدا وهو يحرك رأسه نفيا ولكن عقله مازال عالقاً بين
خطين فاصلين يقف هو الآن منتصفهما. التفت نحو المكان التي تقف
فيه جداول الآن، فوجدتها مطرقة برأسها للأسفل، عاقدة ذراعينا فوق
صدرها وترسم بكعب حدانها دوائر صغيرة متداخلة على الأرض
الملساء. عيناها مظلمة بشروود وحزن براهما للسرة الأولى يسابان من
عينها إلى صلحة وجهها بنجهم أوجع قلبه

وجد نفسه يساق إليها ويلف عوارها فاعلم التوبين كما كانا
جمعنا نطق بأنه رما وجد الناحية بالقطعة بعدد عن شرالهما ولكنها
فوجئت به عندما برفق حيث التفت للوراء ويلف لسانها وهو يلصق
ذفيها عنه ويدخل عيبه لرسم التسامع حولها، التي حزينه شاردة
ويقول:

- اختاري الأسب لهذا، اختاري ما سيسعدكن

بعد أن سافرت والدته لأداء العسرة وهو يلاحظ انطوائها عنه
وشروودها يسيطر عليها يوما بعد يوم، لا يعلم سببا مقنعا لتلك الحالة

التي وصلت إليها، في كل صباح عندما يستيقظ للخروج إلى عمله عندما
نظر إليه برجاء، تمسك به عند الباب بقوة رافعة خروجه وهي تحضنه
هاتفة بخوف:

- لا تتركني وحدي

حتى ملابسها لم تعد تختم بحندمتها كالسابق، بل وتفعل الشيء أكثر
من مرة بتوتر شديد وحرص لتؤكد بأنها قامت به على أكمل وجه حتى
أرغقت تمامًا في أعمال المنزل، بين كل يوم وآخر تخترع حجة لثيقي حتى
ولجئ معها بالمنزل حتى تكاد أن تمنعهما عن دار الروضة تمامًا، تصحو
في منتصف الليل متعركة ترتعش كالمختضر صارخة برجاء:

- لم أفعل، لم أفعل

الليلة الماضية لم تتغير كثيرًا، بل زادت حالتها سوءًا، عندما استيقظ
مرتعبًا وقد ايقظه صوت بكانها، ضمها إليه وهو يمسد شعرها ويقرأ آية
الكرسي بجوار أذنها، صرخت مرة أخرى وهي تلتفت للخلف وتشير إلى
حافة الفراش هاتفة:

- الفراش يهبط بجواري، هناك من جلس بجانبني

ظل يُطمئنها بأن لا أحد معها وبأنها تحتاج إلى الاسترخاء كما يفعل
كل مرة ويقوم بتشغيل سورة البقرة بجوارهما عن طريق هاتفه النقال، ليلة
الأمس أشعلت توتره وقلقه عليها، في طريقه إلى الخروج وتركها وحيدة

وقد أنت عاملة الدار لتصلح بناته معها. لا يريد أن يفعل ولكن
مضطر.

فقر اسم غير إلى رأسه دفعة واحدة فابتعد عن ضمتها قليلاً وهو
يقول مقترخاً:

- ما رأيك بأن نذهبي إلى المكتوبة غير ساعة أو ساعتين. أمي
كانت تقول أننا نعمل صباحاً في المركز الطبي واعتقد أنها ستكون
متواجدة الآن. هي تحبك كما سمعت وسفوح بربانك بالتأكيد

ظهر عليها الوحوم يشوبه بعض السلسل المبرمج للحظات. هناك
شيء ما يشعلها تريد التحدث عنه. يظهر ذلك حلياً في عينيها التي
يحب النظر إلى عينيها. وأخيراً حسنت أمرها وهي تقول تنكسر

- زوجة صديقك عادل تريد زيارتي هذا في المنزل. وقد اقترحت أن
يكون صباحاً وأنسا في العسل وننتظر حتى موعد. سأهاتها بعد
خروجك وأدعوها. أو... أو ربما أذهب أنا إليها

تلكأت يده على مقبض الباب وهو يشعر بترددتها وسعده في تركها
المرتعشة بل وبراه يعتلي كل خلجة في ملامحها التي تصير شاحبة كل يوم
أكثر من سابقه. لا يريد لها الإختلاط برؤى. إنه حتى الآن لا يعلم ماذا
قالت لها في الزيارة السابقة. نعم تكلم مع والدته قبل سفرها وعادت
إليه في اليوم التالي فطمئنه بأنها لم تتحدث معها سوى بالخير. ولكنه لا
يطمئن لها ولا يعلم لماذا!! رآها تنتظر قراره بتقرب وعينيها تحوم حولها

بقلق. ربما هو غطىء بشأن رؤى. ربما تصيران صديقين وتستطيع أن
تُخرجها من حالتها تلك. جسم أمره في النهاية بعد أن تنهد فخرج
الفعالات مشقة قلاً صدره وتوجعه بل وثرهذه في نفس الوقت وقبل
بختوت:

- لا مانع لدي، افعلني ما يسعدك. ولكن إنتهي على نفسك جيداً
و لا تنسي موعد عودة البنات من الروضة

مضى وأغلق الباب خلفه وهو يؤنب نفسه على موافقته تلك. لقد
تسرع. ولكن. ربما لن تذهب أو حتى تجعلها تأتي هي إليها. ربما تغير
رأيها كما فعلت الأسبوع الماضي عندما قالت بأنها ستزور عمها وزوجته
وعند عودته علم بأنها غابت رأيها ولم تخرج. أو ربما ستسمع بنصيبه
وتلجئ إلى الدكتوراة هي. ربما تجد لديها حلاً لأحلامها المفترقة تلك.
أغلق عينيه وهو يشير يده لسارة الأجرة وبداخله يدعو أن لا تُجيب
رؤى على اتصال جدياً بل تحدث تلك المقابلة من الأصل. نعم وهذا
احتمال وارد. فهو يعلم من عادل أن رؤى مزاجية الطباع وكثيراً ما تقر
الخروج فجأة، تُرى إلى أين تذهب!!.

هل يصلح فعل الصواب ليكون حلاً!!؟ أو بمعنى أصح، هل يصلح
بأن يكون حلاً كافياً!!؟ كانت تعلم أن من الصواب عدم عودتها إلى

ذلك المثل الذي حفرته مد شهور قليلة وفروجت. ولم ترجع. ولم
تعود.

ثم إن عودتها أو حتى زيارتها غير مسموحة. لم تعد شقة خالتها ولم
يملكها أحد من بعد ما تركتها. شقة الشقة كانت كافية ليزهد بها الجميع
ونحس الولوج إليها أو حتى الإفتواب من بابها. حتى أن الجارات يرمين
أمام عينيها الفلفل الأسود والخار حتى لا تخرج منها الأرواح وتؤذيهم
كما يعتقدن.

ومن قد يفكر في شقة قبل صاحبها بأسباب احترقت حجرة
واحترفت روحه بغرفة مكتبه حتى تنحمت. وابنتها والله لظفر إليها.
حاولت كثيرا طهر الذكريات إلا أنها تصادر وتنتشر في حواسها فوق إدراكها
وحاضرها. حتى غيبتها فلم تعد تفصل بينهما. ورغم كل ذلك أحدها
قدمها إلى هناك. لشعر بالخير. الشفر بالإنسان مكان لعبها وهي
صغيرة. وكيف تقع الخبز عن أماكن جمع مد الضحك والألم بأفئتنا.
مهاذات على تعذيبنا. إلا أننا نظل نحمل شأها. لسعدت غوها وقد
ألمنا الوحدة أكثر مما كنا نعيش فيها. هي ليست مجرد أماكن. إنما
بؤوسا خلدنا رغنا عن كل الدموع التي ذرفناها فيها.

لم يلاحظها أحد. ربما شكلها قد تغير قليلا أو ربما الناس منشغلون
أكثر مما يجب. تلك الساعة الهادئة بالحي وقد ذهب الرجال إلى أعمالهم
بمس النساء بين تنظيف وتسوق. لازالت تحمل مفتاح الشقة في سلسل

بفتحها الخامسة، كاللص دخلت من باب البنية تفتحت حوقا عربى
وهي تعلم نحو الشقة نوار بنام السادة الكثر المسمى لظهور البنية
والذى تلقى بطله دوما على عبد الشقة فربحها مظلوم بفتح الهمزة
الساكن. لو كنت أجوء الأوزاق المربعة الشكل والمثلثة منها وحفظ
الأسود كما هم في مكانهم وقد ألقوا إحداهن على العدة ولم يزل
بالهم. ففتحت الباب سريعا وأخطت كل شيء، وكان يصر ويحسب
مظلة الباب خلفها بخفوت.

فلازم لأشياء غيرة اضطدعت به عسيفا. وفي لحظة أدركت بأن
كانت رغبة منها أن جاءت. ما تلك الحسارة العدة التي تدفعها
لوقوف على ألعاب الشجرة بلا يست حطفي. العار في معركة تريد
أن تخسرها؟!

السيد نسيلا تخرج على التواء المقلد. يسيل من بين فتحاتها
أصغرة شعاع ضوء يمتشي التلويح بكامله ولكنه يسبح في رؤية باهتة
غير واضحة. رائحة الدخان بدأت تعبق الجدران التي كانت أشبه
بظلال شائعة أمامها. دون إدراك وحدت قدميها لتحركان وكأنه تنطفئ
جلالها قبل الدخول. الدخول ١٢ وكان الأثاث المغطى أمامها بأقشة
كانت بيضاء يتحداها بسخريه أن تفعل. تلفتت حوقا وخافتها بضخ
شوة أخوف. حتى يكاد يقفز من صدرها إلى مكان آخر أكثر أمنا.
وعندها تضيئ بالدمع الغزير بلا توقف. بدأت العبارات تنضح بعقلها

تكاد تصم أذنيها. بل وتصفع أنسانيتها بقوة فعملها يحرك حواسها
جاءا وكأها صربتها

" لا زلت تخططين خلج السواد أينها الفيحة " . لتسقطها عرو
أخرى صافعة في الاتحاد المقابل " لا أعلم لماذا لاقتونين ونجاح من
شؤمك " . رفعت كفيها تضعها على أذنيها بأن متواصل لعل
العبارات الذائعة تتوقف. ولكنها لم تفعل " عطرك الرجيع لن يحد
إليك إلا البعوض أمثالك " . زاد ضغطها على أذنيها دون شعور وأنها
يزداد مختلطاً بالدموع. والذكريات تزداد قسوة لتدفعها للدوران حول
نفسها بلا وعي لاهثة. وفجأة توقف كل شيء. وكأنها أصيبت بالصمم
المفاجيء. عندها ماتت عيناها على كيان ما في المسر الضيق المؤدى إلى
غرفتها. كيان يتحرك. ويقرب منها. شعرت بقدميها تستحيل إلى شيء
خلامي وهي تنفي أمثلها وتُسقطها على ركبتين من شدة النزاع، هربت
الدماء من عروقها عندما اقرب ذلك الكيان أكثر ونست ملاحظه. لا.
ليست ملاحظه. بل ما تبقى منها، كياناً محترقاً بالكامل. يتصاعد منه
دخان بلا نار. وترغم كل ذلك استطاعت أن تسيده، عرفته. بل
عرفتها. عيناها منبوهة كلياً، فسماحت وجهها ذائبة في بعضها البعض.
إلا أنها استطاعت أن تفهم تلك السحرة الناصحة فيه. وقبل أن يغيب
وعبها سمعتها تقول:

- كنت أعرف أنك مسكين، كنت كائنك لا بد وأن يعود إلى جحره
منها كان سا

دومة ترميها فتلقفها دومة أخرى لعمدها نصف الدائرة من
جديد. دائرة منتصف البحر تطلع كل ما يقرب منها. كنت قلت أي
فخرج لقد نفسها في وسطها مجددا. ظلت تحارب بذراعيها ولكن لم
جسدها ثقيل للغاية. يكاد يكون مشلولاً عن الحركة. كانت تعلم أنه
غلب. وزيد البطة ولكن لا يمر. لأنه من يعرف أولاً لنسقط. توقف
عن الهزينة وسكبت. لمحت بأرجلها. وأخيراً امتدت إليها يدي
لنفذها. استسلمت لها وأرسلتها لرفقها عاك وقد هبطت بقوة للبحر.
وسقطت. هل هذه هي الحياة !! السقوط لتخطو

نهفت عاليا وهي تسقط إلى سربها وصبرها يؤهلها للغاية. نعم
هو خلم كما كانت تسقط. إلا أنه ليس لها. جزء البحر فقط هو
العلم. أما ما سبقه. كان حقيقياً. عرفت ذلك عندما اصطدمت عينها
سقف الغرفة فعرفته على الفور. كما في غرفتها. وفوق سربها. ولكن
ليس في شقة زوجها. لقد كانت في شقة عائلتها كما كانت قبل أن
تفارق الوعي. جلست مدعورة شاخصة البصر وهي تختصن جسدها
بذراعيها في محاولة يائسة للاحتواء:

- وأخيراً التقينا يا صديقة !

صرخة احتسست بخلفها وهي تلتفت نحو مصدر الصوت. ورائها :
تطوف بخيلاء أمامها كأن مساحة الغرفة الشاغرة الحقيقية قد تعدت
مستحيلة إلى معراج خاص لها. ذات ملابس فضية لامعة جوانبيها
فضفاضة تطوف معها كأنها تُرفرف. همسة منفلتة غير مصدقة تحركت من
شفاتها دون صوت. خرجت الحروف مجنونة يحنون اللحظة هائفة :

— هالة !

لا تعلم ما مر من وقت وهي تخدق ر هالة المبتسمة لها بجمال.
انعدام الزمن وتوقفت ساعات الكون. شعرت بأن الطيور هي الأخرى
توقفت فجأة عن الطيران. وسكنت حركة الحياة. وكان عمرها يتوقف
على تلك النظرات المرتعة التي تحولت إلى لاهول ربما يقتلع مقلبيها من
شدتها. قبل أن يعود الدم لضججه بأوردها من جديد. ونصرخ رثيها طالبة
للنواء ومازالت شفيتها التي أصبحت قاحلة من شدة شحوبها تُنمض بلا
توقف:

— هالة. أنا أحلم. لا. هذا كابوس أريد أن أستيقظ. أنا لست هنا.
كل هذا غير حقيقي !

تركبتها هالة تكدى للحظات وهي قبض ثم تستقر أمامها واقفة بثقة.
ذراع مناسبة بجانبها والأخرى موضوعة فوق خصرها برشاقة. ذهب

هذه المرة شعرت بنسمات باردة تدور من حولها حتى غرلتها الريح
الخفيفة عن العالم فلم تعد تستمع إلى الصراخ الألي من خارج العرق.
وبرودة عذبة تخط كالقراشة على كفيها لترفعها بنعومة من فوق أذنيها.
فتحت عينيها ببطء مهيب. لتري حالة تسحب أصابعها بين أناملها برفة
وتنظر إلى عينيها مباشرة وتقول بترنم:

- اطميني. أنا صديقك. أحملك بروحي

قالت حالة كلستها الأخيرة ثم ضحكت ترح وهي تتابع حديثها ناثرة
خصلات شعرها بمنة ويسرة فتساقط منها حبات اللؤلؤ:

- فعلياً لا أملك عيوها في الوقت الحالي !

أسرت حبات اللؤلؤ المطيرة عيني رؤى رندا عينا بمنظرها البديع.
لما جعلها تناسي للحظة بأنها تتحدث إلى مبدع بالفعل وثمنت مأخوذة.

- أنا أستحق انتقامها، لقد احرقتها !

ابتسمت حالة لعينيها فاضاءت شمس أخرى من بين فكيها ورفعت
كففيها قليلاً وكان الأمر يبدو معقولاً وهي تقول:

- هي من كانت ترغب باللحاق بأبيك. أنت أسديت لها معروفاً
تستحقني عليه الشكر. لا الإنتقام

حدث رأى أن نعيد بعينها ولو قليلاً عن عيني هذه ونكتبها في
السطح كانت مأسورة كتبنا بداحنيها. حتى أن كلمات هذه بدت في
سطحها جداً. فحركت رأسها موافقة ثم تساءلت باليهار

- وكيف تستظعن حمانتي منها ؟

فحركت هذه لنعود إلى حالة الطواف من جديد. كسلوكه نوعي حماتها.
نصف الرعية. فحس بحوش عرو مرببة. ففوت من رأى من خلفها
وهست بأذنها:

- لي علمكم. الشرب هو المسيطر وإخاكم. أما علمنا نحن. فقواعد
مختلفة تماماً

حدث رأى تنزل من حمده وانطلقت حولها بصياح وصوتها يرتفع
خروج

- أخرجني إذن من هذا وأعدك أن لا أعود ثانية

هست حالة بأذنها الأخرى:

- لم تسألني حتى الآن ماذا تريد منك

وهل تريد شيئاً ؟ غاصت حواسها ترقياً بين أمواج همسها.
نرى ماذا تريد منها؟. ظلل عقلها سحابة ومادياً يكاد ينطلي بخطط
لتكبرها للحروج لما هي فيه الآن. سواء كان حلاً أو حقيقة. ولكن

هَمْسَةٌ أُخْرَى مِنْ هَالَةِ صَدَمَتِهَا وَرَسَمَتْ لَهَا حَدُودًا لَوَاقِعَ يَفْرُضُ نَفْسَهُ
عَلَيْهَا فَرَضًا لَنْ تَسْتَطِيعَ تَعْدِيلَهَا أَوْ حَتَّى الدَّوْرَانِ مِنْ حَوْلِهَا:

- أَرِيدُكَ أَنْ تُحْيِيَنِي !

هَمْسَةٌ كَافِيَةٌ لِتَجْعَلَ وَعْيَهَا يَنْدَفِعُ بِهَا بَعِيدًا عَنْ حَاضِرِهَا وَلَكِنِهَا
تَمَسَّكَتْ بِهِ بِغَضَبٍ صَانِحَةٍ بِأَثْبَارِ مَعْتَرِضٍ وَقَدْ عَادَتْ عَيْنَاهَا تَشْخِصُ
مُجَدِّدًا وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةَ بَدَأَتْ تَنْدُ بِدُمُوعٍ وَفِيرَةٍ:

- أَنَا لَسْتُ إِلَهًا لِأُحْيِيَكِ !!

كَمْوَجَةٌ هَادِئَةٌ تَحْمِلُ طِفْلًا أَوْشَكَ عَلَى الْفَرْقِ إِلَى أَحْضَانِ الْيَابَسَةِ
الْخَضِرَاءِ، وَاجْهَتْ هَالَةً عَيْنِي رَأَى وَقَالَتْ بِنَغْمَةٍ سَاحِرَةٍ:

- أَحْيِيَنِي فَوْقَ أَوْرَاقِكَ، أَحْيِيَنِي بَيْنَ سَطُورِكَ، أَخْبِرِي النَّاسَ عَنِّي،
رَبَّمَا أَنَا مِتُّ بِالْفِعْلِ وَلَكِنْ، مَازَالَتْ الْحَيَاةُ بِهَا هَالَةً أُخْرَى وَأُخْرَى
تَنْتَظِرُ أَنْ تُحْيِيَهَا بِقَلَمِكَ !

تَرْقُرُقُ الدَّمْعُ مُجَدِّدًا رَمَادِي عَيْنِيهَا الْخَائِرَةَ بِسِحْرِ الْكَلِمَاتِ وَهِيَ
تَتَسَاءَلُ:

- كَيْفَ !؟

- أَعْلَمُ بِأَنَّ الْكِتَابَةَ هِيَ هَوَايَتُكَ، أَكْتُبِي عَنِّي، وَأَنَا سَأَمُدُّكَ بِكُلِّ مَا
تَحْتَاجِينَ مِنْ تَفَاصِيلَ سَتَجْعَلُهُ يُجَنُّ، أَرِيدُهُ أَنْ يَقْرَأَ، أَنْ يَشْتَغَلَ
ضَمِيرُهُ اشْتِعَالًا

تموجت الحيرة بين طبابت وجهها وعلامة استهزام كبيرة ظهرت
عينيها فتابعت حالة نجمة عن سؤال صامت

- هشام، وأيا كانت الطريقة التي سلخوري بها الناس عني، فسوف
أضعها أمامه، وبين عيني، سأرغمه بأن يقرأ

ولماذا تفعل^{١٢} وما شأنها هي، بقوة حركت رأسها رفضاً والتمرد
يرحف رويداً رويداً بداخل عينيها، ثمرد ظهر بوضوح في تشنج شفتيها
وتوتر جسدها، ولكنها كانت مُحْطَنَة، على الأقل في تلك اللحظة، لقد
عاشت حالة المريضة الشاحبة، وشحرتُ بهالة الكيان المرمرى، أما
الآن، فلقد وضعت نفسها وجهها لوجه أمام هالة القاسية قليلاً، فطلت
هالة المساحة التي كانت تفصل بينهما وسحبت كل تركيزها في عمق
لحاج عينيها التي صارت تتوعد بقسوة وهي تقول بنبرة لها حرارة تلسع
كعود ثقاب انطفئ، وجهه للتو ورحل معه أريج حضورها:

- مستطعين، وإلا !

انحنى نحوها وهي تضع الطفل أمامها على مقعده المخصص له
وتطعمه وتناغيه، قبل أعلى رأسها وهو يقول مداعباً:

- وأنا أين عشائي يا زيتونة !

رفعت وجهها إليه وهي تُضيق عينيها باستهجان مرح هاتفة:

- اعتفني لوجه الله، كف عن مناداتي بهذا الاسم

عاد رأسه إلى الورداء ضاحكًا بينما هي تحمل مقعد الطفل من فوق الطاولة وتضعه على الأرض خشية سقوطه ونهضت تواجه ضحكاته التي يستفزها بما دومًا، دفعته من كتفه بغيظ صانحة:

- توقف عن إغاضتي يا عادل، أنا لست بزيتونة !

حاول التماسك بأن يوقف ضحكاته ويهدىء صخبها قليلاً وهو يضع كفيه فوق صدره إشارة لطلب صفحتها، وضعت يديها بخصرها بتأفف متبرمة حتى سكنت تمامًا ثم أدارها إليه وأمسك وجهها بين كفيه في طريقه إلى الاعتذار، رفع حاجبيه وهو يقول بجدية أغاظتها أكثر:

- آسف حبيبي، أنت لست زيتونة، بل أنت طبق من القشدة

ابتسمت رغمًا عنها رافعة حاجب واحد بثقة ولكنها لم تتنازل عن التبرم العالق بشفتيها فكانت النتيجة النهائية شفاه معقوفة للأسفل قليلاً، ولكن عادل دمر أسفه مردفًا:

- طبق من القشدة سقطت فيه زيتونتان وشرائح مكنوزتين من الطماطم الطازجة

غطت وجهها بكفيها وهي تحركه بياس منه، هذا هو عادل، حبه مشاكسه، شغفه إغاضه، ولكن عندما يلحظ حزنًا ما بعينيها يتحول إلى عاشق متفهم لا يشق له غبار، إلا أنه يجدها في هذه اللحظة في مزاج

جيد للمزاج بالإضافة إلى أنه جائع، فلم لا؟، أمسك بكفيها ليحرر وجهها وقبلهما مُدْعيًا الاعتذار، وقبل أن يتابع بمشاعبة أخرى سقطت نظراته على المقعد الوثير خلفها، منذ أسوع تقريباً وهناك كتباً للحكايات لا يفارق يديها، تصحبه معها أينما جلست، فقال بعد أن مط شفتيه ورفع حاجبيه متسائلاً:

- يا ترى ما السبب المفاجيء لشغفك بالكتب هذه الأيام؟

ارتبكت قليلاً وكأنها لم تتوقع أن يلاحظ وتحننحت باحثة عن إجابة منطقية لتوانٍ قبل أن تجيبه بعينين زالغتين:

- وهل لديك مانع؟

تنفس بعمق ثم قبل جبينها بعينين شاردتين، يشعر بأن دواخلها غير سعيدة بغيابه طوال اليوم في عمله، تشعر بالملل لذلك مزاجها متقلب بين يوم وآخر، لا يستطيع أن ينسى مظهرها وشكلها منذ أيام حين دخل المنزل فوجدها شاحبة تبكي بهستريا، تشبثت به حين رآته، كانت والدته قد هاتفته وأخبرته بأن رؤى مرت بها وتركت الطفل لديها متعلقة بالتسوق ولم تعد إلا بعد غروب الشمس بجينة تشبه شخص دُفن بالخطأ وهو على قيد الحياة، وعندما استيقظ وجد نفسه محاصر بين جثث الموتى، ظن أن والدته تبالغ ولكن عندما دخل شقته ورآها هكذا، توقع أن الأمر جلل بحق، ليلتها أخبرته بأنها فقدت وعيها في المتجر الكبير ولم تكن تحمل هويتها فلم يتعرف الناس عليها ولم يأخذوها إلى أي مشفى

وظلوا يحاولون إفاقتها لوقت طويل، وعندما استفاقت بقيت مع عاملة المتجر بقية اليوم حتى استطاعت التوازن من جديد ثم عادت لتأخذ الطفل من والدته لذلك كانت حالتها مزرية !.

بداخله شيء ما يجاهد لتصديق قصتها تلك وبالأخص لأنها حامل في الشهر الأول من حملها ففقدناها توازنها أمر منطقي، ولكنه لم يكن مستريحاً أبداً ولا يعلم لماذا، وفي اليوم التالي وجدها تعبث بمكتبته الكبيرة وتصنع لنفسها ركنًا خاصًا بكتبها ودفاترها، كانت في نظره خطوة جيدة ملهى وقت فراغها بشيء مفيد كالقراءة، ولكن هذا لا يكفي، لابد وأن تتواصل مع صديقة أو أكثر لتكسر شرنقتها هذه، ومن يستحق الصداقة والتواصل سوى شخص تتشابك طرُقنا بطرقه بشكل أو بآخر، ومن غير زوجة هشام تعاني من نفس الوحدة التي تعاني منها رؤى، لا بل أكثر، ما قصه هشام عليه اليوم عن زوجته فطر قلبه على صديقه، أغمض عينيه وضم رؤى إلى صدره وكلمات هشام الحائرة تضرب ذاكرته من جديد:

- أسبوع كامل تتحاشاني يا عادل، تقول بأن لمساتي العابرة لها تلسع جلدها بل تنغزها كالأشواك، أسمع صوت أنينها وهي نائمة وكأنها تعاني وتحارب ثم تستيقظ صارخة، سأجن يا عادل .

خرج من بئر ذكرياته رغماً عنه عندما شعر برؤى تُربت على خده نوة هائلة:

نستطع أن تواجه عينيه المتسانلة بدهشة فاشاحت بوجهها بعيداً
وهربت من بين ذراعيه نحو المطبخ بخطوات عصبية وهي تنضم بصوت

- ساعد لك العشاء !

تصلب جسده مكانه وهو يرقب حركتها الزقة المرتبكة وصوت
بكاء ضعيف لطفله قد بدأ يعلو بخانه. انحنى يحمل الطفل وعياده لا
تفارق الباب الذي اختفت خلفه منذ خطوات. جسده منعقد وقد بدأت
أفكار غريبة تغزو عقله عن تلك المشاعر التي لم يشعر بها يوماً في قلب
زوجته نجاة هشام. ترى هل مازالت تحمل في نفسها ذكرى رفضه لها في
السابق؟ لقد نسي هو شخصياً هذا الأمر. حتى أنه لم يناقشه معها
أبداً. وعندما سأله في بداية تعارفهما من الذي دله عليها ولماذا اختارها
هي بالذات؟ اضطر أن يخترع لها قصة وهمية حتى لا يخرج مشاعرها
أكثر وقد أعجبه للغاية. فلماذا تظنوا تلك المشاعر السلبية الآن؟!

وقالت لي

تفحص الكاتب الصحفي عداخالق مروان المطروف بين يديه
مدهشنا، ثم بدأ في فتحه وقص الأوراق منه وقراءة ما بين سطورها
بفصول، حينها علم بأنه أمام حالة فريدة من نوعها تحتاج إلى تأمل
عميق وصبر طويل لفك أحبيتها وألغازها قبل الحكم عليها، وقد تيقن
من ذلك عندما وصلت عيناها لآخر مطور مقدمة الأوراق وقد كتبت له
الرسالة فيها :

- "وسأطرح أرسل لك للحصول زيارتها لي في شغتي المهجورة، وفي
كل طرف سأرسل لك مستند عليه عنواناً يتوسطه من الخارج
وهو نفس العنوان الذي كتبه على الطرف الذي بين يديك الآن
"وقالت لي " .

لا أريد منك تصديقي، أريد فقط أن تنشر شكواها، لعل روحها
تهدأ قليلاً وينقطع شبحها عن زيارتي !.

لأول مرة يقف أمام رسالة كهذه، لقد اعتاد قراءة حكايات من
سرايب الحياة المظلمة، بكل زواياها المهجورة، إلا أنها كانت جميعاً في
النهاية شكايًا وتجارب أحياء!، لم يتخيل أن يأتي يوماً بفرد مساحة في

بانه، لئلا، بالأكيد سينهمه الجميع بالجنون، أو على أقل تقدير
بصاعة ضجة إعلامية وهمة لياحه الأسوعي تعكس على مبيعات مجلة
التي ينشر على أشهر باب لها " بين الناس " !

مقط الطرف من بين يديه وهو يرفع وجهه القسحي المشرة بإجهاد
منسوب بالخبرة ويسعد بظهوره للحلف فلقيا بفقل جسده على ظهر
المقعد الصم حلف المكتب الخشبي الكبر والمستلوى سطحه بالأوراق
والخطابات عن آخره والمستدير نصف استدارة من حوله، يواجهه
مقعدان متقابلان من الخلد التي الفانح وبهما طاولة زجاجية مستديرة
صغيرة، دار بالمقعد دورة كاملة فمرت عينا على الحدران المطلية
بالأزرق المتداخل مع الأبيض باستحمام يساعده على التركيز، دائما ما
يرفض تعليق اللوحات على الحوائط، يفضّلها هكذا خالية من أي إطار
سوى من مكتبة مستقبلية في زاوية منها ضمت بعض الكتب المتنوعة
التي بفضل قراءتها بين حين وآخر البناء عمله، حلف بمقعد نافذة
موصودة في الجدار قطعة زجاج شبك يفصله عن العالم الخارجي،
نصف دورة إضافية لتكمل عينا رحلتها إلى اليسار فانعكست صورته
على المرأة الطويلة المتصلة بالجدار، أصبحت الآن أمامه مباشرة،
توقف المقعد عن الحركة، لقد نال الإجهاد من روحه قبل جسده وعقله،
انسحبت نظراته نحو خصلاته البيضاء على جانبي رأسه فمرر كفيه
قوفهما وهو يشرد كليًا فيما قرأ منذ دقائق، تلك الرسالة التي سجنته
بين سطورها من بين مائة وخمسين رسالة أخرى!، وأبت أن تحرره منها

للمرة الأولى لن أعنون الرسالة بما يليق بما فلقد أصرت صاحبها ان
يكون عنوانها " وقالت لي "، والآن سأترك لكم الإبحار في لجأها كما
حدث لي قبلكم .

وقالت لي !، من يريد " بين الناس "

أقرأ بابك دائماً وأراسلك وأعلم بأنه لا معنى للذكر مكان تواجدي
الآن، ولكنها حالة مختلفة واختلافها باختلاف أبطالها ومكان كتابتها،
أما عن المكان فأنا بين جدران غرفة موصودة في شقة مهجورة، ينتظرنى
خارجها كابوس أسود لينتقم منى شر انتقام على القرصة التى منحتها له،
وأما عن أبطال القصة فتجلس أمامى الآن بطلتها الرئيسية والتى توفاهما
الله منذ شهور !.

مزق الآن خطاي أو احرقه، إلغى كما تشاء، ولكن لا تكذبني، هي
الآن معي وجها لوجه ولا أعرف كيف، تعجب واندesh كما تشاء،
ولكن صدقني، الكاذب دوماً تكون له مصلحة من وراء كذبتة، أما أنا
فلا أريد سوى الخروج من هنا فقط، فهي وبرغم طبيعتها إلا أنها حين
تغضب تكون مختلفة، هددتني إن لم تصل قصتها إلى الناس فستستحيل
حياتي إلى جحيم دنيوي، وكل ذنبي أنني كنت صديقة عابرة في أواخر
حياتها القصيرة .

ولسبب آخر اعتقد بأنه وجيه جداً، إنها تريد أن تُثلي علي بعض
الأحداث التى لا يعلم عنها أحد شيئاً سواها هي وزوجها السابق فقط،

لما أتانا الآن في حضرتها وبين يديها وأمام عينيها المحسنة بالبدن
 وانتصار لم أر مثله من قبل، سأمر لأسمها بحرف " هاء "، إن أبلل
 بهذا أكثر في ترميز اسم زوجها لأنه هو أيضاً يبدأ بنفس الحرف لذلك
 سأستعمل آخر حروفه وهي " ميم "، حتى ييسر لي الحديث عنهما كما
 أردت، أما زوجته الثانية التي تزوجها بعد وفاة " هاء " فسأمر لها
 بحرف " جيم "، والآن إليك قصتها

كالعادة استيقظت صارخة، وكالعادة انفض من نومه فرغاً بثلث
 حوله حتى يستطيع تمييز أنه في غرفة نومه وعلى فراشه وجدائل تشب
 به، زفر بقوة وهو يربت على ظهرها ثمسداً لشعرها وهو يستغفر وقد
 بات الأمر غير محتمل، مازالت ترفض أن تقص عليه كوابيسها وكأنها
 تخشى البوح، وبروتينية مد يده ملتقطاً هاتفه لتصدق آيات سورة البقرة
 في المكان، فتهدأ وترخي عضلاتها المتشنجة ثم تنام على ساعده غارقة
 في عرق جبينها ومنابت شعرها وهو يمسح عنها العرق بيده الأخرى
 ورغماً عنه دواخله ترتجف وكأنه يستشعر رعبها ولكن يخشى الإعراف،
 سينتظر حتى تعود والدته لتصرف، لقد سأم حديث عادل عن ضرورة
 التقرب إلى الله ليزيح عنهما ما هم فيه، إنه يصلى فروضه وهي كذلك،
 فماذا يفعلان أكثر من هذا؟!، صحيح أنه يؤخر الفروض وأحياناً
 يجمعها عندما يعود للمنزل آخر اليوم، ولكنه يؤديها في النهاية!، لقد

أخذ بنصيحته ويقوم بتشغيل آيات سورة البقرة في المنزل يوميًا ولم يحدث أي تطور، صحيح أنه لا يستمع إلى آية واحدة منها بتركيز بل ويعود للنوم في بدايتها، مصحفه يعلوه الغبار عن آخره من هجره لما بين دفتيه ولكن هذه قدرته، والله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها !.

علت زفراته مجددًا دون إرادة منه وهو يحاول العودة للنوم من جديد بعد أن أقنع نفسه ب تلك الأفكار، ولكن هزيم الريح الشديد في الخارج يثير خيالاته المتأصلة بعقله منذ الصغر عندما كانت والدته - ساعجها الله - تقول له أن هذا صوت العفريت في الخارج إن لم ينم باكراً فسوف يدخل إليه، ورغم اهتزازه الداخلي إلا أنه لم يستطع منع ابتسامته طافت بين شفتيه لبرهة وهو يسخر بداخله من هذه الذكرى:

- ولم أسأل نفسي يوماً عن مصلحة العفريت في جعلني أنام باكراً كل ليلة؟!

التفت نحوها فوجد أنفاسها وقد انتظمت وراحت في سُبَات عميق، فسحب ذراعه من أسفل رأسها ببطء، غمض من بين ركام الأغطية الثقيلة على مهل، ومشى على أطراف أصابعه حتى خرج من الغرفة دون أن يحدث جلبة، توجه إلى التلاجة مباشرة فتحها والتقط منها ثمرة يوسيفي وأخذ يزيل قشرتها الخارجية وهو يتوجه نحو غرفة بناته، فتحها بحدوء وألقى عليهما نظرة اطمئنان، ابتسم لرؤيتهما بتلقائية ولكن ابتسامته تلاشت على الفور عندما سقط شيء ما في الشقة الكائنة في

الطابق العلوي مما جعل صوت الارتطام يبدو وكأنه في شقته هو، استوعب ذلك مؤخرًا بعد أن بُحتت ملامحه عند سماعه للصوت وقفز قلبه بين قدميه لثوان، مما جعله يحنق على نفسه وعلى استعداد الدائم للذعر هكذا، أغلق الباب عليهما وجرد قدميه نحو الردهة، مر بين المقاعد المريحة حتى التف جالسًا على مقعده المفضل أمام الطاولة، هوى جسده بحنق وهو يستنشق بقوة ويزفر ببطء ليهدأ، نظر نحو كفه وقد تذكر للتو بأنه مازال محتفظًا بالثمرة وقشرتها معًا في يد واحدة، ولكن هيهات لقد ذهبت شهيته أدراج الرياح وانتهى الأمر.

مال للأمام ليضع ما بيده على الطاولة باستياء فلفتت نظره مجلة، عجبًا !، لا يذكر أنه اشتراها سابقًا، تناولها يقلبها بين يديه بلا حماس حقيقي، ضيق عينيه حتى تغضنت زواياها عندما وقعت نظراته على أحد أوراق المجلة مطوية من الداخل على شكل سهم غير متساوي غير عناية، مرر أصابعه بين أطراف الورقة ليعيدها كما كانت وقد أخذه الفضول قليلًا، " وقالت لي " سقطت نظراته على العنوان الأحمر اللون بسخاء، مما جذب انتباهه لأول السطور، وعندها تمت مندهشًا متسع العينين:

- امرأة ميتة تحكي قصتها، هاء، ميم، جيم !!

ارتحلت عيناه بين كل سطر وآخر، كلما ترك واحد قفز فوق الآخر سريعًا كسرعة أنفاسه وحركة صدره مُحملاً بها، وجهه يزداد احتقانًا بالدم

والكلمات تخطف الهواء من حوله وتحبسها عن رتيبه :

" لم يكن شغوفاً في منذ البداية " ، أنا التي صرحت بمشاعري أولاً .
عُدتُّ له الطريق فصرتُ وكأنني أدفعه دفعا لمسوار الزواج . عندما
رفضته عائلتي في البداية لتفاوت المستويات الاجتماعية بيننا . حرمت
نفسي من أن أرى الرجل الذي اخترته ينافح عن حبه . يقال لأجلنا .
فحبسته كل هذا وجعلته يتنحى جانبا ووقفت أنا بوجههم حتى رضخوا
في النهاية وهم يتعجبون من خلو ساحة المعركة مندا . وبعد الزفاف بأقل
من شهر ، أنا التي كنت أختزع القصص ليطل متيقظا بخواري بعد دخولنا
للغراش . ولكن كسر خاطري أصبح عادة لديم . بل زاد الأمر سوءا مع
مرور الوقت وهو يضرب علي بكلمة عرل أو مدح لمظهر قضيت في
الإعطاء به وقتا طويلا لأجله وحده . فقط ينسج ويقول كلمة واحدة " جميل " ثم يدير وجهه ليتابع المعروض أمامه على شاشة التلفاز . ماذا
أقول . لولا ثقتي بنفسي وبدرجة الجمال التي منحها الله لي لكنت
اقتنعت بأنني دميمة

عندما بدأت مشاكلتي ومعاركي الداخلية تدب بيني وبين والدته .
تركني هو أواجه تدخلها في حياتنا الخاصة وحدي . وُعدت لحاربة المتبقي
من عائلتي لأحصل على نصيبي الميراثي من والداي في شقة العائلة . ولقد
كان مبلغا زهيدا من المال . قذفوه في وجهي . وبيدوني من يومها . وبذاك
المال القليل سمعت لتأجير شقة أخرى لتفصل ولو بعض الشيء عن

وأعده ووفرنا بعض الأدوات البسيطة وقد كان هذا مسمى أعملى من
تدبير، حياة حامية بعدًا عن المشاكل، وفكر الخجل على مذهب غيره من
حجر قلبه لي حتى ليست أنولي. وأصبحت عذابة بعد شعورنا بالحب
لأنساب.

نعم أعترف، عروفت عنى لأوقات طويلة سب مباشر في حياتي
للمشاكل، وقد شعرت بالحب. هل تصور كيف يكون الحب من أول
رجل أحبه لحبائي؟ لم أكن قبله. ولم أعرف رجلاً غيره. فهل يلومني
أحد الآن عندما أقول أن العزلة اشتعلت بطني عندما رأيت كيف
يتعامل مع زوجته الجديدة "سيم" الذى تزوجها بعد وفاتي. هل
يستطيع أن يكرهني عندما يعلم بأن النسب المباشر في الجسم الذى
نعيشه هي الآن. لقد كنت تصور أنه سيأملها كما كان يتعامل معي.
ولكنني نظرت إليه، فوجدته شغوقاً بها، حزيناً على إرثها، عساه
تلمع ذوقاً وهو ياملها، ينحت عنها، أمله لئلا يتركها سريعا إلى
أاملها. أينما جلست يظل قورا عوارها، يخصص حضرها، لا يرمى
بطفلة تفصل بينهما في الفراش، بل لا يستطيع النوم إلا وهو يلمسها
بشوق جارف كما لم يفعل معي يوما وأنا حية.

أردت أن أسأله هاسية بأذنه. لماذا؟ ولكنني تراجع في اللحظة
الأخيرة. خفت أن يرتعب فيضغ الطفلتين. فهو يخاف إلى درجة
مضحكة! حاولت أن أبحث عن الإجابة في عينيه، وفعلنا غثرت عليها

وهو ينظر لما يريق لم يتوجه يوماً لأجله. فأدركت الفارق حينها. بعد
أحبها. هكذا ببساطة. أحبها !.

فانزويت بخفية في أحد الأركان فوق الستائر المعلقة بعد أن خدمت
عش العناكب به. العناكب التي تشعر بي أكثر منه ! .

إلى هذه النقطة توقفت " هاء " عن الحديث سيدي ووجهها مائل
للغاية ونظرت نحوي بنزيف من الدمعات اللؤلؤية وقالت لي :

- أتعلمين صديقتي؟. أنا لست مينة فقط. بل هائلة أيضاً.
صحيح؟!

وقبل أن أجيبها سيدي علا الصراخ في الخارج من جديد. وكان
دمعاتها أضعفتها للغاية فأصبحت لم ير قادراً على حمايتي. سبحت الغرفة
في ظلام سرمدي. وسمعت صوت والدي تصرخ سروراً جحيمية وكأنها
أمامي وجهها لوجه:

- تعالي إلى غرفة والدك حالاً يا قاتلنا. فهو يريدك بشدة !

نظرت إلى " هاء " فوجدتها نرس وتنس والألم يرسم بريشته الحزينة
فوق ملامحها. أخذت تصغف وتذبل كالورد المدهوسة للنور. وكأنها
أصبحت بقايا منسثرة. وقتها اتخذت قراراً بالخروج من الغرفة. سأذهب
إلى أبي بالرغم من علمي بأنه سيؤخني لتقاعسي عن حضور جنازته !!.

انتظر رسالتي القادمة. وللحديث بقية .

وتعددة عدا غنائى مروت لا بد وان يعنى بشيء من الصبح والمساءلة
في حبة كل رسالة. إلا ان هذه الرسالة بشكل حصري لم يستطع ان
يكتب إلا عبارة واحدة فقط يعطينا عليها

الجنوس الظاهرة هي التي احسرت الاله ثم احسرت ان الحب
الاحمرى مرارته. فنتيجة تفسيرا للعادل من السعادة سودى في حبه او
الاحمرى *

وماذا ينشج عن الصدمة المبروحا بالخوف والرهبة والمغلطة بآلية
قائل للتفسير سوى قدر يعلى بالإشعالات المضطربة القادرة فوق
وجدانه وعقله. هذا المخرج الدليل للإشعاع يفت في صدره. نسحق
الجلد الآن ببطء ودون إرادة بين كتيبه يسما عباءة تسعد عن آخرها.
عالمقان بنية شديدة. وهذه حسي السطور التي قرأها لتتو. إنها كللت
وتعيرات هائلة، هو يعرفها. أحداث حرجية لم يطلع عليها أحد سواهما.
نسبة الشك في غير ذلك صفر. إذن هي تراقبه. أحقد عليه. تريد تدميره
وزوجته، أعلنت حرقها وليس لديها ما تخسره، بعد أن خسرت كتيها
نفض رأسه بعنف وهو يتنفس لاهثا ونشطة ما يراوية نطاسة بعقله
تتهمة بالجنون. وتسأله بتحد. هل ستصدقني هذا المراء حقاً؟

ترجى العليل وحلب لفسها عليها فأجحت جميع نفوسهم
 فيص من متعدد وهو يرفع رأسه للأعلى نحو السقف الخديعة. ثم من
 نظراته التي فازت الحيون نحو السقف. ثم قصة السقف كمن يحرك
 عنها. توقفت عياد عند هذه النقطة وقد أوشكت حجابها على الانصراف
 بعينها البعض من شدة الضيق بينها. ربما فقلبه فسران بالنعيم
 سافر. ملاحظته النهائية كانت أنه محرم فقدم على ارتكاب جريمة و
 رفع الخلة للأعلى وهو يهتف ضاحكاً أسانه بقوة رغبنا عنه.

- نعم. نعم يا هالة أحسنتها. أحسنتها أكثر مما فعلت معك

أقول يديه للأسفل ثم فتحهما عن فصرعهما كمن يستعد للقفز
 ضعة فادمة نحوه وهو بعيد هتافه وقد خرج عن السيطرة وأخذ جسده
 يدور حول نفسه في المكان ذاته:

- ماذا سفعين بنا. هيا أربى جمحك

لم يصل صوته إلى أحد، بل وكأنه تم عزله تمامًا عن العالم. خرج من
 دائرة وجوده. شعر بأن سره قد هُرب حوله. طليعة ما قرّضت عليه.
 طليعة وظلم كـ يوسف آخر ألقى به في بئر بيد أخوته، وتسلق الفخ
 الشحارة المزعزعة. إغمار على ركضه وما زالت الخلة جزء من كفه وعينيه قد
 احتضنا بالدم وهو يروح تحت ثقل ندم وذنوب يسويانه بالأرض. وصار
 يمسس بخشون وقد تعب.. تعب حقاً ويريد أن يستريح:

- كنت قوية، أقوى من أن تشعريني بأحسبك في أقوى من أن
تفكر معاناتك أمامي، وأنا كنت أغنى من أن أفهم كبريات
فهمت مؤخرًا، عندما قرأت وصيتك في. ففهمت بالأساس
السخرية التي كانت عاقلة دائمًا فوق شغفك كنت أغنى من أن
وضعت أكبر مما يجب أن تتحلى به وحدك. أملي، حذيل، جمعت
ضعفها بين كتبها وقدمته في بساطة هامة " أحسبك "، فبرحت
هستنا في قلب رحولي. جعلني أستبصر معاني كثيرة بداخلي
جعلني أحوم حولها أنافح عنها ضد كل شيء، وأي شيء يجرحها،
ها فقط اكتشفت نفسي، وفهمت معنى الكلمات التي كنت
ترددتها يوما ما عندما كنت تقول " لن أستطيع أن أفهمك، أنت
ستفهم وحدك، ولكن مع امرأة أخرى غري " . والآن وقد
فهمت، فماذا تريد مني يا هالكا، ماذا تريد مني؟

- ماذا لم تخبرني كل هذه المدة يا هشام؟

دفن رأسه بين يديه وهو يركر على فخذه فحشا بخفوت.

- كل هذا حدث وأنت تؤدين مناسك العيرة يا أمي

رمت على قدمه وهي تتسائل بخنان:

- وكيف حال زوجتك الآن؟

زفر حاشاً دون أن يرفع رأسه قائلاً:

- كما هي، كوايس مفرقة ليلاً، وانزواء بعيداً عني وضروب
ملكوتها الخاص فخاراً، تعيش عذانا مستمراً

استندت بكفيها إلى عنكها، بشكر عبق اللحظات قبل أن ترق
حاجبها بنحضر وهي تغسم ونومي، برأسها بطة

- لا تحمل هم يا بني، أنا كفيلة به

لم يشأ أن يطلعها على أمر الغيلة والرسالة التي كتبت لها، بالرغم من
خفته الشديد الذي غلبك منه بمجرد أن أحرته جدائل في الصباح أن
رؤى كانت تزورها في اليوم السابق، وهكذا استطاع الربط بين وجود
الغيلة في البيت وزيارة رؤى الغريبة، كان يريد فضح أمرها عند والدته
مؤكداً لها سوء اختيارها السابق لها كزوجة له، ولكنه لم يفعل، لم يقل
شيئاً، حاش أن تطلب منه الرداء إلا طبع بالكلام أمام جدائل وتذكرها.
صعد تأكيد لديه بأن جدائل لم تتضحها من الأساس بل وتضاحات
بوجودها، إلا أن هناك مسأ آخر أقوى منه في اللحظة الأخيرة، ما إن
يريد الاحتفاظ بما وجهه أمامها، فوالدته حتى هذه اللحظة لا تعلم
كيف ظهر فجأة المال الذي سهل لهم عملية الانتقال إلى شقة أخرى.
أقصى ما قالته هالة في وقتها أن هناك طلب سلفة من عمله، ترفق
الدمع في عينيه وهو يتذكر كيف وقفت والدته توبخها طناً منها أن هالة
هي التي ضغطت عليه لطلب تلك السلفة المزعومة، وعندما تحرك

توقف والدته نظرت له هذه نظرة معبرة في - لا غير -
يقول على الحق وأنه كان ينظر تلك الطراد والآن لا يرى في
ذلك لحظة بسية. أراد أن يفتك بكومة الدم والداء ولم حتى ظهر
حساب كرامتها

أخرجت من شرفة من حوض ماء الشفة فجلس ينادي لحي
عده من حلقه. فحرد أن يبع الثوب الغليظة من بين الحشوات
كان يتوقعها في هذا اليوم بالذات فهذا هو يومها الأسوفا
تسمو في المساعة مضطربة لم تلت في والده مدينا

- إنما عني يا أمي

عاد ويسمو مرة أخرى ولكن هذه المرة المساعة حلقية وهم ينادون
أحياء صبية الضحية البسة وهي تهاوي تنسج هذه أدام مضجع
وحضتها بالما تفتت بضعة واحدة تلك الضحية التي تأكل جيش من
ورائها كما تقول. فهي لتحصنة الوحيدة في المنطقة والمسودة من
نظف ومسح سلام العمامات وشلقها أيضا لم تطلب الأمر. وهي التي
فتحت شقة هشام وعطشها قبل حرمه. ولم تسر وانها أن تلتقي الصالح
على مسامح والده هشام بأن النقطة تعاقبه صد شهيد ورقا لكون
مكبوت الآن. فلماذا لا يلجأون إلى مسيح وأصل لتحصلها. كالنسخ
عند الصالح. ففتح الأبواب الموصودة وهاجر الحق والأشباح

في ذلك الوقت لم تلفت والدته هشام كثيراً لثروتها ولكن الآن هي
تحتاجها بشدة. خفضت من مقعدها وتوجهت نحو الباب نظير سحبي
قليلاً هاتفة:

- انتظري يا عنبر أريدك في أمر هام

وقف هشام مكانه عند الباب منتظراً أن يبدأ في رحلة حمل الله
اللازم إليها ولكنه فوجيء عندما سألتها والدته وهي تضيق عينيها بخدية
وتركيز:

- أين هو مكان الشيخ عبد الفتاح هذا يا عنبر

رفع هشام بقوة وتوجه للدخول باركاً مكانه حالاً وقد بدأ يعرف ما
هي الخطوات التي ستتبعها والدته خلال مشكلة زوجته. بينما لمعت عيني
عنبر وهي تُجيب بحماس زائد:

- ألم أقل لك يا خالة، على كل حال الشيخ يراعي مسألة التكميم
على الناس المحترمة أمثالكم لذلك هو من سيحضر إليكم

أومات والدته هشام برضا وهي تلتسم موافقة:

- هذا ما كنت سأطلبه خصوصاً وأن الشقة تحتاج إلى زيارة منه

بمجرد أن أغلقت باب الشقة سمعت هشام يقول من خلفها بضجر
ونفور شديدتين:

- أمي أنا لا أحب تعريض جدائل لتلك المواقف من فضلك

- ولا أنا يا ولدي، ولكن ما باليد حيلة

ظل يذرع ردهة الشقة جيئةً وذهاباً وعقله يرفض الفكرة تماماً. بالرغم من أنه لا يعرف ماذا سيفعل هذا المدعو عبد الفتاح ولكنه يخشى عليها، توقف فجأة والتفت إلى والدته التي كانت شاردة بعيداً عارفةً في أفكارها وقد فاض به الكيل:

- أمي أنا غير متحمس أبداً لهذا الحل

قصت والدته وعينها ما زالت شاردة في السافذة أمامها مباشرة.

- لا تخف عليها أنا سأصرف وألهمها بصورتها

خرج هشام من بيت والدته حركاته عصبية يمشي بها جمده، هابطاً درجات السلم بسرعة كبيرة وهو يضع الحافظ على أذنه ويقول متوتراً:

- عادل قابلني بعد ساعة في مكاننا المعتاد. أحتاج التحدث معك بشدة

جلس عادل فوق الأريكة الخشبية وهو يضع ساقياً فوق الأخرى وذراعيه متمدتان على ظهر الأريكة من خلفه وينظر بتفكير إلى ظهر

هشام الذي يقف أمامه مواجه لحياة الليل. وكفحه غارقين في حبي من يوم
وبرودة الجو في هذا التوقيت من العام تجعل من لقاءهما في هذا المكان
في غاية الخلق. ولكنه ليس بأقل من الخلق الذي مثلت من هشام يوم
يواجه عادل عند بداية اللقاء و يرمي بوجهه أمامه لزوجته رؤى ما
سيأتي مباشرة في الحالة التي وصلت إليها حذائل وخصيصاً بعد زيارتها
أول أمس .

كادت أن تقوم بينهما مشاجرة حفيفة يسما عادل يدافع عن
زوجته بشراسة ضاعف منها الطواء الملتصق المسكت من زبدته. نقابا العقل
دفعت هشام لهذا. هناك المنفعل عند هذه النقطة ويوجه إلى سور
الكورنيش مستمداً بحسده إليه ويداحده بهم أنه أخطأ وتسرع وقد
يتسبب هو هذه المرة في هدم بيت مسبقه أو على الأقل تكدير صفو
حياته. تركه عادل لهذا قليلاً وحلّس بغير لطفه يستطيع الوصول لحل
أمثل يحميه لحل مشكلة هشام دون أن يمس أحد زوجته رؤى ولو بكلمة
واحدة. دقائق أخرى وبدأ الوضع بينهما يغمر شيئاً فشيئاً حتى قرر
هشام إضاءة بالكامل وتصحيحه. استدار نحو عادل متقدماً نحوه ببطء
حتى وقف أمامه ثماناً. ولكن الكلمات هربت من صدره فعالجه عادل
قائلاً بجدوة:

- تجرد العلم بالشيء. رؤى زوجتي كانت ترفض أي تواصل مع
زوجتك وأنا من ضغط عليها لتذهب لزيارتها

جلس هشام بجواره وهو يربت على كتفه وصوته يعبر عن إطراد
الإنفعالات المتناقضة بداخله قائلاً:

- أنا آسف يا عادل، أعذرني، فانا واقع تحت ضغوط أكبر من
قدراتي على التحمل

مال عادل للأمام وهو يفرك كفيه ببعضهما البعض ويجمعها نافثاً
الهواء بينهما لعل الدفء ينبعث فيهما ولو قليلاً، ثم قال بجفاء:

- لا تُبرر يا هشام، هذه الضغوط التي تتحدث عنها نابعة من
مخاوفك، من عدم قدرتك على المواجهة، لا تنظر أبعد من أنفك
- كالعادة -

قال كلمته الأخيرة بسخرية وهو ينهض واقفاً واضعاً كفيه بجانب
سرتة الجلدية الثقيلة، قائلاً:

- أرجو أن لا تنسى في خضم معتركك هذا أنك ستسافر بعد عدة
أيام إلى مقر الشركة في الإسكندرية لضرورة العمل

أوما هشام برأسه موافقاً وهو يراقب انصراف عادل الذي ألقى
كلمته وغادر دون انتظار الرد، معه كل الحق، لقد أقحم زوجته في
مشاكله الخاصة، وكأنه يخبره دوماً بأن زوجته رؤى مازالت تتمنى أنه لو
وافق على الزواج منها، حتى وهى زوجة رجل آخر الآن، ودوافع الحقد
بداخلها تحركها لتغيب حياته مع جدائل .

هو يؤلم صديقه دون أن يشعر. ربما من أجل ذلك لم ينس من حسن
أو بعيد إلى لحظة والمراسلة التي قرأها هذا، واكتفى فقط بأن يهرق
الأحرة فلت حلقا وجعلها شاردة سارحة في ملكوت آخر. يبدو أنه
ليس أمامه حل آخر سوى الذي تقدمه إليه والده. الشيخ عبد
الفتاح!

يسروال أسود وفيمس باصع يامع باله ربطة غرق وهو فلهما سرور
صوفية سوداء طويلة لصل إلى ركنه. دخل الشيخ عبد الفتاح شلة
هشام خطوات والثقة، لمهلت عينا والده هشام عليه بطرات تقيمية.
ربما تجاوز الأربعين من عمره يسروال القليل. ذهبا حليلة لامعة ورأسه
أصلع من مصطنعها غاما. أظلت الطبة مع التواضع من عيبه إطلالة
فميرة بصحية اسماحة غامضة موشولة فوق شديدة فلا بول وهو يحول
بعينه بأرجحة بأركان الشقة وولادة هشام بأحد من عرفة إلى أخرى مع
صوت نام فجوه على الخليل سوى من ضربات عكازها على الأرض
أثناء سيرها وههشات حفيفه لا يستطيع أحد منهم فهمها تصدر من
بين شفتي الشيخ عبد الفتاح. لم يستمر القصة طويلا حينما أضي
الرجل جولته ثم عاد إلى الردهة وهو يناظر جدائل التي انكشفت من
ذراعي زوجها وبعينها نفور وخوف تجاه غير الوافقة ملتصق ظهرها
بباب الشقة المغلق كما أمرها عبد الفتاح بعد دخوله ثم تحولت نظرها

المجنحة الخائفة نحو الأحمر الذي ابتسم عندما أعبره هشام بأحدا
تنفض بقوة، فجلس على المقعد المقابل لها وسيرة هادئة قال

- لا تبالي، إنها تنفض لرؤيتي

ارتفع حاجي هشام بدهشة وقيل أن ينطق انفجرت الكلمات من
فيه غير وهي تتكلم غصاف كعادتها قائلة:

- لا تقلق يا أستاذ هشام، روحك بالتأكيد ملبوسة ومن يسكنها
هو الذي يرتعش الآن، فالشيخ عبد الصالح مشهور عند الجن ..
اللهم احفظنا - ويخافونه

أشار لها عبد الصالح أن ليست بها فائدة والدقة هشام متسائلة:

- ماذا رأيت في اللقطة ؟ شيخ، ومن ماذا تعاني زوجة أبي؟

لأرأت عينيه عاتلة في عيني حنايل وهو يحسها بنوع من الإشفاق.

- حفيظة يا حائلة، هذه اللقطة ليس لها موضع قدم، قبيلة عن
أكسليها من الجن تعيش بها، أما زوجة الأستاذ هشام فلا بد من أن
أقوم بالكشف عليها أولاً

- ماذا؟

هشام بها هشام باعتراض ودهشة بعدما حفزت عبارة الرجل الأخيرة
دهشة كاملة فشد على ذراعها يضمها إليه دون شعور، وهي

استجابت غامرة وجهها في صدره أكثر، لا تعلم ماذا يحدث حولها، لا تعرف سوى بضع كلمات شحيحة قالتها حماقاً قبل حضور ذلك الرجل بعشر دقائق لا أكثر، عن أنه رجل بركة سيقوم بحل جميع مشاكلها وبأنها لن ترى بعدها تلك الكوايس المزعجة مرة أخرى!، أعادتها نبرة صوته التي شأبها بعض السخرية إلى حاضريهم وهو يتحدث إلى هشام موضحاً:

- الكشف هنا يعني بأنني سأقرأ عليها بعض من آيات القرآن الكريم لأستطيع تشخيص حالتها

سكت هنيهةً وبدى على ملامحه بأن هناك عبارة لازالت عالقة بجوفه، ثم أخرجها مُردفاً باهتمام :

- ولو أن يخبرني الطويلة ودون كشف، أرى بأنها حالة مَسْ

حرفه الأخير خرج ممطوطاً قليلاً، مُحدثاً رنيناً مُزعجاً بمعناه وليس بصوته فقط وهو يمر بدبذباته بينهم، إلا أن تلك الحالة لا تقارن أمام التوتر والذعر الذي حدث بعدها عندما أكمل حديثه وهو يزيد من تركيزه بنظرات ثاقبة في عيني جدابيل:

- أرى وجه امرأة غاضبة يُطل من عينيها الآن!

لم تتوقف عنبر عن قول العبارة التي يبدو أنها لا تحفظ غيرها من حين لآخر:

- اللهم احفظنا

بينما أصبح الخوف سلعة رائجة بين الثلاثة الآخرين وقد تحولت نظرات والدة هشام وهي تناظر الشيخ عبد الفتاح إلى نظرة رجاء صامتة ترجوه العلاج، بينما أغمضت جدائل عينيها وهي تنسبث بقميص هشام الذي تجمدت عيناه على وجه الرجل الذي أوما برأسه يطمئنهما وهو يمد يده بجيب سترته مُخرِجًا لفافة صغيرة بيضاء لم تزد عن حجم أصبعين من كفه قائلاً:

- لا داعي لكل هذا الذعر، مدة العلاج لن تزيد عن الشهر، جلستان في الأسبوع، إذا إلزمتم بتنفيذ جميع الطلبات

مَرَحْتُ ابتسامة ساخرة مرتعشة قليلاً على شفى هشام، ودون تفكير قال مُعلِّقاً:

- آه، هل ستطلب منا دجاجة مُطلقة، أم ككوتًا يتيماً، أم ستقوم بالإعداد لزار و..

قاطعت ضحكة الشيخ عبد الفتاح التي انطلقت ساجحة في فضاء المكان وقد بدا المرح على وجهه، وبعد أن هدأ إلتفت إلى والدة هشام قائلاً:

- من فضلك يا خالة، أريد زجاجة مياه وإناء بلاستيكي متوسط الحجم إملايه بالماء أيضاً وبعض قطع من ملابس لكل ما يقطن في

أومات المرأة برأسها وانصرفت للداخل تتبعها عنبر لمساعدتها
عاد برأسه إلى هشام قائلاً ببرة مازال المرح عالفا بها:

- أنت قديم للغاية يا أستاذ هشام. حتى الدجالين اليوم لم يعودوا
يستخدموا تلك الطرق وقد أستهلكك كثيراً في الأفلام المصرية

صرف هشام عينيه عن الرجل بخرج وهو يذس أصابعه أسفل ذقن
جدليل وهو يهيمس لها أن لا تخاف وأنه نجوارها في كل خطوة. دقائق
قليلة وعادت عنبر حاملة الإناء الالامسيكي بين يديها وصدرها بنهن
صعوداً وهبوطاً. وضعت الإناء عند قدمي عميد النضاح

واعتمدت تتناول قطع الملابس من يد والدته هشام التي كانت تحمل
رجاجة المياه بيدها الأخرى. أشار عميد النضاح إلى الإناء وهو يوجه حديثه
لـ عنبر أمراً:

- أغمسى الملابس في المياه. اغسريها لآخرها

فعلت عنبر ما أمرها به ثم ناولته رجاجة المياه وابتعدت تقف بجوار
والدة هشام. فتح الرجل الرجاجة ثم وضعها على الطاولة التي تفصل
مقعده عن مقعد شاغر بجواره. ثم عاد إلى اللقافة الصغيرة الورقية التي
أخرجها من جيبه مسبقاً. فتحتها أمام هشام وهو يشير إلى المادة التي
تشبه الدقيق ولكن لونها أصفر قاني يحيل إلى الخمرة وهو يقول:

- هذا زعفران، النساء تستخدمه عادة لحسن نكهات الطعام أو لإضافة لونه إلى العصائر

تعاقت نظرات هشام المصطربة بين والدته التي أومأت له مؤكدة وبين الزعفران وحامله الذي بدأ يفرغه بدقة بداخل الرحاحة. مسح لونه باليد ليتغير لونها إلى الأحمر الباهت. أخلق الشح عبد الصالح الرحاحة حيناً ثم رجحها بقوة بين يديه لدقيقة كاملة ثم وضعها على الطاولة تاركاً أياها وهو يقول:

- الزعفران يؤذي الجن بشدة

قال كلمته وهو يرفع رأسه نحو عمر يوشاحها الكمر وحملها الزاهي متسائلاً:

- هل معك منديلاً قماشياً؟!

أصهت عمر وهي تتحسس حشيتها فاستطرد وهو يوقفها بيده قائلاً بعفوية:

- أنتظري أنا معي واحداً تقريباً

بحث في جيبه الثانية وأخرج المنديل بعدها ثم ارتكز بمرفقيه على فخذه. جامعاً المنديل بين كتفيه، قربه من قدم ثم أخذ يتمتم بكلمات مهمل. لأكثر من خمسة عشر دقيقة وهو يتمتم هكذا. يرفع صوته

قليلاً بين حين وآخر فيستمعون إلى آية قرآنية يعرفونها ثم يعود ليحصى صوته مرة أخرى فلا يدركون بماذا يطق لسانه !

أنهت الدقائق بشق الأنفس، وما كاد أن يرفع يده فلقبها الحنديل في الإناء البلاستيكي حتى حدث اشتعال طفيف، شهقت معه والدته هشام عالياً وقد اتسعت عيني هشام عن آخرها، بينما الشيخ عبد الفتاح يطفىء الشعلة الطفيفة التي حدثت ثم يرفع رأسه إلى هشام قائلاً:

- روح روحك الميتة تسكن حوائط ملاسكم، وهي غاضبة للغاية !

وضعت والدته هشام يدها على صدرها في محاولة كسوة لتهدئة خفقانها. وعندما وقعت عيناها على نظرات جدابيل تملكت منها الدهشة. لقد كانت تنظر إلى الإناء، برود وكأنها تشاهد عالم آخر موازي. لم تتأثر !، لم تكن هي وحدها التي ترأب عيني جدابيل. بل كان الرجل يفعل نفس الشيء، وحين تكلم وجهه حديده إلى هشام وقال:

- أعتقد أن روحك المتوفاة بدأت تخضر بينما

قطعة من الجليد انصابت فوق عسوده الفقري وانحدرت إلى أسفل قدميد مشيرة زوايا مخاوفه فارتعش جسده بالكامل وبدأ يشعر بذراعيه تنحل دون إرادته ببطء من حول جسد جدابيل التي تنظر إلى الجميع نظرات مبهمة كطفل لا يعي شيئاً مما يدور حوله. صار هشام مسلوب الإرادة. مستقبلاته العصبية في إجازة مفتوحة، ففتح الشيخ عبد الفتاح الزجاجية وناولها إلى هشام وهو يأمره أن يسقيها منها ثم يسقي والدته

[illegible][illegible]

والمجلس المذكور من غير علمه بسلطان الدولة العثمانية في ذلك الوقت
عندما كان في طريقه لزيارة الجزائر في سنة ١٨٣٠م وحينئذ كان
في طريقه لزيارة الجزائر في سنة ١٨٣٠م وحينئذ كان

عينها جامدتان وأنفاسها تتسارع وكأنها تنفس من سم الحيات. تضاع
الحياة. وفيها نسي زوجته التي تهدي. العالقة بين عالمين. وعبر التي
تكم صرخاتها بكفيتها وبات وجهها كالأموات وهي تنظر إلى عبد الفتاح
الذي كان يبحث عن راحة المياه ويدسها بسننبه قبل أن يفر هاربا.
كل تصور تتحرك من حوله يطاء فابل كبطء نضبات والدته في تلك
اللمحة. والتي تضاء بالها سموف ساكنة بين ثاية وأخرى .

ثم يحتم بعضا بالهوت. ولكن مواجتها فعلا، تجعل مشارفها باختم
أمر مخيف!

إختفاء

لم ينتظر المصعد، قفز درجات السلم طابقاً ينتهي ليبدأ بآخر حتى وصل إلى طابقه المنشود، ظل يعدو بين أروقه حتى تراءى له جسد هشام من بعيد، كان يتحدث إلى طبيباً خرج لتوه من حجرة مجاورة، أسرع الخطى وصدره ينتهت بشدة من الإنفعال والجهود، مجهذاً نفسياً أكثر منه بدنياً، منذ أن تلقى الإتصال السريع من هشام قبل قليل، يحبره على عجالة بأن والدته بين الحياة والموت في المشفى، طيلة الطريق وهو يحضر نفسه لتلقى صدمة قاتلة له ولصديقه، وعندما رأى الطبيب يقف مع هشام هرول نحوهما بأسرع مما تكون الخطوات، واستقر واقفاً خلف صديقه واضعاً كفه على كتفه، إلتفت هشام إليه ثم عاد يلتفت إلى الطبيب الذى ألقى نظرة عابرة نحو عادل ثم تحول بعينه واهتمامه نحو هشام مستكملاً الحديث الذى بدأه للتو:

- كما قلت لك يا أستاذ هشام، تحليل عينات الدم أثبتت أنهما تناولوا عقاراً مُهلوساً، والدتك لم تتحمل مضاعفاته، ولكن لا تقلق هي الآن حالتها مستقرة، ولكن ستبقى معنا هنا لعدة أيام قبل أن تخرج معك

ثم عادل مصدوقاً:

- عقار هلوسة !

لم يظهر على هشام أنه قد استمع لتعليق صديقه. فلقد كان يردد
رفقه الجاف بجفاف حلقه وهو يتابع تساؤلاته:

- وزوجتي؟

عدل الطبيب من وضع عويناته قبل أن يجيب بعجلة تنهيا الحوار

- بخير، ونستطيع أن نأخذها معجزة أن نستيقظ

ابنسم وهو يستدير ليعاين فلم يستطع عادل كتم الضحالة الكبر من

هنا، أدار هشام ليواجهه وهو يهتف بالترعاج

- ماذا حدث معكم يا هشام أي عقار تهلوس هذا؟

ثم هشام وهو يتجه نحو أقرب منضد ليرمي فوقه حمل حبه
المهلك، الموشك على الإكهار بالكمال، مستنداً عرقته إلى فحلبه
بتنفس، وهذه في حد ذاتها معجزة. إنه يتنفس أحراراً لقد علم أنه قد
فقد القدرة على التنفس منذ أن سقطت والدته أمام عيبه وحتى خرج
إليه الطبيب ليضمده بالحقا بخير. أخرج الضحالة في رجفة طويلة طيلة قبل
أن يلتفت نحو عادل الذي جلس على المنضد المحير له مثلاً بجده
نحوه. عيده مرقبان لما سيخرج من بين شفتي هشام بقعة صر، وبدا
يقص عليه ما حدث منذ دخول الشيخ عبد القادر الصواب إلى حارة

بعد أن دفع له مئة جنية عن الزيارة الواحدة، وحتى خروج والدته
وزوجته إلى سيارة الإسعاف .

ضرب عادل ركبتيه بقبضتيه وهو يهتف بعصية لم يستطع التحكم
بها:

- النصاب، ابن ال (.....) . كيف تُدخله بيتك يا هشام، كيف !!
مرت أمامهما ممرضة في هذا التوقيت الخاطيء، فالتفت نحوها
بتقزز وقد ضرب لفظ عادل أذنيها، وأسرعت خطواتها لتخطأها بنفور.
وضع هشام يده على قبضة عادل المستقرة على قدمه، وربت عليه
مهدئاً وهو يقول بإحناك شديد:

- سأحرر محضراً ضده في الصباح، الآن أنا مقتول ذهنيًا يا عادل،
أرجوك

استند كلاهما إلى ظهر مقعديهما في صمت مطبق، كل منهما في
عالمه الخاص، هشام غائب في زوايا عقله حيث ذكريات اليوم المولمة
تمر أمام عينيه بحركات بطيئة والإفتراضات تغزوه من كل اتجاه متصوراً
بأن عقار الملوسة ذاك الذي وضعه عبد الفتاح مع الزعفران في زجاجة
المياه، كان بدلاً منه عقاراً آخر، ربما مُنوماً، ماذا لو أصر على أن
يشرب هشام هو الآخر، كان ثلاثتهم سينامون منزوعي الإرادة وبصحبة
نصاب ومساعدته، ترى ماذا كان سيحدث، نفخ رأسه بقوة وهو

يرفض تلك الصور البشعة التي مرقّت بعقله. تضرب رحلته في مضل
عادل معه حق، هو السبب بلا شك. كان مخفياً عندما قال له بأنه ينظر
إلى ميزة مواجهة مشاكله. ولا ينظر أبعد من نفسه. شعر به عادل قرب
على كفه وصوته الهادي، يتسلل إليه متسللاً:

- ابن جني و لجين الآن؟

إكفى هشام بالنظر بطرف عينية وهو عليه خفوت

- هذه ميزة الأحياء الشعبية يا عادل. عندما وقفت سيارة
الإسعاف أمام المنزل ورأى الجرحى والذى وروحني بدخلان إليها.
أصرت أكثر من جارة لنا على اصطحاب سالي معها في بيتها.
والحمد لله لقد كانتا بالنسبة أثناء كل هذا في شقة والذى بالأسفل
فلم يشعر بشيء. وفي النهاية استقرت عند زوجة ياسين جارتنا.
أنت تعرفه

أوما عادل برأسه مؤكداً بوجه قاتلاً:

- نعم. وسأمر عليه لأخذهما معي إلى بيتي حتى تتحسن صحة
زوجتك

رفض هشام رفضاً قاطعاً بعد أن شكره ثمناً. فزوجته ستعود معه
بمجرد أن تستيقظ من النوم على إثر المهدىء الذي حقنها به الطبيب
وقد كانت حالتها يرثى لها وهي لا تتوقف عن الهذيان والقيء.

وأخذ يمني نفسه بكل ما هو جميل. سيعود كل شيء على ما يرام
سنعاف روحته وبعد أيام ستخرج والدته من المستشفى وقد سعدت
صحتها. وترجع سائته إلى دار الزوجة وستحس حاله بالمرء القادم
لديهما ويصبحا مثل أفراسيا في تلك النس. سيضع نفس الغلة بعد
صدور العدد القادم منها وسيجد أنه لا رسائل أخرى تفصل عيون
قالت في: "نعم، سيكتشف بأنها كانت مجرد فرجة. مرحلة سعيدة لا يعلم
مصدرها. كل شيء سيكون بخير. لا شك في ذلك!"

في اليوم الثاني عادت جدائل بصحبته إلى بيتها. ولكن رافضة لأن
تواصل معه. ترفض حتى التواصل الضري ولو بطرف واحدة. أحلت
الفتاتين من بيت ياسين سأكرة زوجته ثم صعدت حيث شقة حماتها.
أصرت على عدم الصعود معه لشقته. انفصلت عنه اتصالاً تاماً لأيام.
لم يرها فيها إلا أوقاتاً قليلة جداً. إما عندما يأتي بعد عودته من العمل
ليلاً ليرى بناته لدقائق قبل أن ترفض هي أن ينام معهن بنفس الشقة.
أو عندما تذهب لزيارة والدته في المستشفى وفي نهاية الزيارة ترفض أن
يقلها بسيارة أجرة إلى المنزل وذلك في المرات الشحيحة التي تصادف
تواجده مع حضورها هناك.

وكعادته انتظر، ينتظر حتى تُحل الأمور من تلقاء نفسها مع الوقت
وكان شيئاً لم يكن. غافلاً عن الإشتغال الذي يزيد بتجاهله لشرارته

وتركها نفضاً وحدها. ها هنا هو الإهمال الذي كانت هذه المحدثات
في وصيتها، الإهمال الثاني. تشعل الخرافة، صارتا كعادته عرض الحائط
معرفته الحديثة بأن طرق باب قلب الأذى يستلزم قلبه حمل حطب
الإهمال

وجاء اليوم الذي كان يستلزم غللي. يوم صدور العدد الجديد من
المجلة. لم يكن في كامل تركيزه ذلك اليوم أثناء عمله. ذهبه فليست لها
لدرجة أن السزعي الشاب عادل من بلدة سرود. عباداً وحطاً على
مراقبته وكأنه منبه لا يريد تقوية القاصيد. وقبل نهاية اليوم حاول أن
يسأله بخوف عن السب. معقداً أنه ربما ساءت حاله والدته الضحية
ولكن هشام طمأنه بأنها بخير وأن الطبيب سمح لها بالعودة عدا إلى
المنزل.

كم يحب هشام صديقه بما يورقه، وكم يكره قيامه بتسليط الضوء
على المشكلة الحقيقية بداخلها. لم يكن متذور عادل الضغط عليه
ليتحدث أكثر من هذا. فهو أيضاً يعيش نوعاً من التوتر مع زوجته روى
دون سبب واضح. ويرغم إصراره عليها يوماً أن تخفي له ماذا يوترها.
فتبدو وكأنها ستحدث. وقبل أن تنطق يخوف واحد تعلق شفيتها
وتدعي حاجتها للنوم. زفر ببطء طارداً جميع الانفعالات المظلمة. وانفتحت
نحو هشام الجالس على المقعد الجلدي خلف مكتبه ومال بجذعه نحوه

ثم قال يلقوت:

- مواعيد العمل شارفت على الانتهاء، ما رأيك لو تنصرف الآن،
فانت متأخر باكراً ولابد وان ترتاح جيداً

سقطت عبارته على منطقة حيوية براسه يفكر بما منذ ان جاء إلى
العمل صباحاً، متى سيغادر ليشتاع الحلة؟، بل متى سينفرد بنفسه لبحث
فيها عما لا يريد أن يجده؟، تبرعت عينيه بالإجابة رافقها تحرك جسده
وهو ينهض على الفور و يومئ براسه بتعب مُدلِّكاً عنقه المُجهَّد وهو
يقول:

- أنا فعلاً في حاجة شديدة للراحة استعداداً للسفر

جمع أوراقه المبعثرة بإهمال فوق سطح مكبيه يُفضهم إلى بعضهم
البعض بداخل أحد الدفاتر، ثم أغلق خزانة المستندات بإحكام قبل ان
يلتفت إلى عادل مُخيمًا إياه وهو يغادر إلى أقرب بائع حراند ومجلات
يقابله في طريقه.

منذ ان ابتاعها وأمسكها بيده وهي تقلقه بين هواجسه المتوالية،
تُشعل فتيلها شيئاً فشيئاً، حتى قَرَّب صبره على الانفجار، وعندما وصل
إلى المنزل لم يمر على شقة والدته كالعادة، لم يكن باستطاعته ممارسة
الإنظار أكثر من هذا.

وفي غرفة نومه وفوق فراشه أستلقى بكامل ثيابه، لم يتزع عنه سوى
حذانه فقط، الأمر بالنسبة له حياة أو موت، كمن ثأثيه رسائل من قاتل
مجهول، وفي كل رسالة يجد بها علامات ترشده إلى شخصيته الحقيقية،
بدأ يُقلب صفحاتها بقلّة صبر، حتى توقف أخيراً أمام صفحة برید "بن
الناس" إلتهمت عيناه السطور حتى سقطت على ما لم يتمن يوماً
مُعابنته، الرسالة الثانية منها إلى الصحفي عبدالحائق مروان، تحت عنوانها
التي اختارته في السابق" قالت لي :

هل تعرف سيدي قول الكاتب آرثر ميللر عن هؤلاء الأشخاص
الذين يُفضلون أن يُشنق الجميع على أن يوجه إليهم عتاب ما أو يعزفوا
بأخطائهم؟!، أحد هؤلاء الأشخاص هو زوجي!، فعندما كانت تنكث
بصدري أفعاله حتى تتعاطم ولم أعد قادرة على حببها بداخلي أكثر من
هذا فأعاتبه عليها، وقتها كنت أشاهد وجهه يختن بالضييق، قبل حتى
أن يفهم مشكلتي الحقيقية، يُغلق قلبه عن سماع بقية عتاي وبذلك
عصبته تُنصت لي وحدها، نظراته تتحول إلى صخر، وكأنه لا يراني أمام
في تلك اللحظة، فقط يرى أخطائه تتجسد في، فتكرهني عيناه بشدة
ثم يحدث الانفجار!

إنفجار يطيح بي وبه، يُبعثر أشلاء سنوات قضيتها معه، في خدمته،
وفي محراب حبه، والآن أتساءل، ماذا لو كان يسمعي وقتها بقلبه، ماذا
لو تفهم عتاي، ماذا لو تحركت شفاته بكلمات تروي صحراء حي

التفاحلة، بدلاً من ديبب الصمت الذي يُمكن في قلبي به !، أعلم سيدي
أن في تلك اللحظات كان للصمت عندي ضجيج يثير أعصابي ويفقدني
ما تبقى لدي من عقل !، لا لأن الصمت هو من يؤدي في حد ذاته،
بل لأنه كان يلتهم مني كل صبر وأنا أنتظر كلمة واحدة منه تُطفئ النار
المشتعلة بروحي !، صبر مغموس بالانتظار الدليل، ككلب يلهث ينتظر
أن يُلقى إليه سبده بفئات طعامه .

ولم يكن يفعل !، ومن شدة عجزه وقهره منه ذات ليلة، أتيت
بسكين وحزرت أطراف شعري حتى شغرت بألم مُبرح يغزو فروة رأسي،
ثم وضعت شعري الممزق على شاشة هاتفه وهو نائم، أعلم أنها حالة
جنونية أصابني ولكن الجنون الأكبر أنه عندما استيقظ ليأخذ هاتفه
أزاحه بعيداً وتناول إفطاره وذهب إلى عمله، لم يُكلف خاطره بالقاء
نظرة علي ليتفقدني هل أنا على قيد الحياة أم لا !، وكان قهري أصبح
من المُسلمات البديهيّة لديه !.

أعلم أنك ربما تُفكر أو أحد قراءك، لماذا لم أطلب فراقه؟، لماذا وقد
استحالت العشرة بيننا إلى جحيم صامت؟، ذاك السؤال طاف بذهني
ذات يوم وأح علي بقوة حتى كدت أن أتخذ قراراً به، ولكنني توقفت في
لحظة صدق أمام المرأة، أنظر إلى نفسي، امرأة تجاوزت الثلاثين و
طفلتان، أنفقت كل ما تملك على شقته والأثاث المتواضع بها، نبذها
أهلها بسببه، نبذها هو شخصياً، عاطلة لا تعمل !، ترى ماذا ستحصل

في النهاية إلا على ضياع كامل، في مجمع تحمل المرأة المختلفة كل
الأسباب، كل العيوب، بل ويطلع بها أيضًا !.

أما الآن ومع زوجته الجديدة "جيم" فهو متفهم للغاية، فمخسر في
ولمشاكلها، أعرف بأنه أحضر إلى المنزل رجلًا نصائبًا ليسمعي عنها، وإن
كنت بينهم، أشاهد وأضحك. كان مشهدًا مثاليًا لتسليتي بالفعل. كان
يستحق ما حدث له في النهاية. ويستحق ما سيحدث له بعد ذلك.
فلقد قررت أن أخفي تلك اللعبة بطريقتي .

ماذا هو يوم معها بينما كنت أنا كنت أعذب لدي. لأبد وإن
يفقدها لي شعر بما شعرت به يومًا، بشعر بالعجز، بالقهر، بالذل. ولن
يجدها ثانية .

كنت أريد أن يكون السلام حامي. ولكن تلك الكلمة غريبة
عندما تبحث عنها بين دفتي أيامي .

من هشام قرأ وطرا ونهت سطور رسالتها في اللحظة التي
اكتشف فيها أن علامة الدموع في عيني أصبحت ثقيلة للغاية، ثقيلة
لدرجة لجعله يهبط صرعه في النظر إلى السطور القليلة التي كتبها عبد
الحافي مروان تعليلًا على رسالتها.

- حالة يريد تفردا تفردا. حالة مجهولة الخطر، سقت أطراف
مشاعري وتفكيري إرباكا من نوع خاص، يغري حاسني على
السعي ما أكثر في محاولة لفهمها. بل ومحاولة مراسلتها لتكتب

أكثر وأكثر عن نفسها، وعليه فلن أتوجه بنصح إليها الآن.
سأجعل قلبي فخاذا وهو يوجه حروفه نحو بعض الأزواج من هذا
النوع، وإليهم أقول :

- إرفع رأسك أيها الزوج وانظر إلى المساحات الشاغرة. في قلبك.
ومن حولك. وابحث عن زوجتك. تغطي جدار البيت الذي علا
بينكما يوما بيوم. فلربما تجد هناك "ها" أخرى تبكي ليذها بفهم.

أسدلت عيناك ستائر جفونك وسقطت الخلة فوق وجهه. لقد أيقن
بأنها كلمات هائلة. ولغرائبه لم يرتعب كما المرء الأول. حتى وإن شعر بما
حوله في تلك اللحظة. حتى وهي تقول بأنها لن تتركه يعم بسلام. رفع
رأسه واستسلم لأي شيء. اللهم إن انتهى كل هذا !

استيقظ في الصباح وهو لا يعرف كيف سرفه النوم بالأمس. كل ما
يتذكره آخر كلمات المرء وأغمض عيونه دون أن يشعر. بينما سقطت
الخلة فوق وجهه تفصله عن العالم. غص فجأة كالمسوع وهو يهتف
باسم "جدابيل". شيء غامض بداخلة نبت فجأة لا يعرف ما هو. كل
ما يعرفه بأنه يخبره بأن حياته أصبحت. ناقص واحد !، شيء اختفى.
وربما إلى الأبد !.

نظر إلى ساعة معصمه العالقة بيده منذ أمس، لقد تأخر كثيراً، كان يجب أن يكون في طريقه إلى محطة القطار الآن، لم يفعل شيئاً سوى أن ضرب وجهه بعدة دفعات من الماء وهو منحني أمام الصبور، ثم انطلق يرتدي خذانه على باب شفته ويهرول على الدرج، كان لابد من أن يطمئن عليها وعلى فتياته ولو لدقيقة واحدة، فتح الباب فتفادح الخاص وأخذ يثقت حوله وهو ينادي عليها سرّاً محفظة، ولكن لم يجبه إلا الصمت المطلق، حدث نفسه بأنها ربما تكون نائمة فالوقت لا زال باكراً جداً وموعد دار الروضة لم يحن بعد، كما أن يغادر ولكن آخر عبارة برسالة هائلة فقرت إلى ذممه ودفعت قديمه للبحث عنها بجميع الغرف، لا أثر لأي منهن بالشقة على الإطلاق، وقف بمصنف الزدحة يحاول طرد الأفكار السيئة عن عقله، ربما ذهبت لزيارة والدته بالمشفى؟ أم ؟، أم ماذا؟، إلى أين ستأخذ في تلك الساعة؟

أغلق الباب خلفه بتوتر وعناد يقفز درجات السلم فحدها المشفى هدفه وبالتأكيد سيجدها هناك، أصطدم رغباً عند نجارة ياسين الذي كان يخرج من شفته في ذلك الوقت متوجهاً إلى عمله، فابتسم ياسين له وهو يلحظ حالة هشام المرتبكة المشبعة وقال بخمسة:

- أستاذ هشام، صباح الخير

تجاوزته هشام وهو يرد تحيته سريعاً ولكنه توقف فجأة عندما سمع ياسين يقول من خلفه:

- لا تطلب على نفسك ولا على غيرك من أن تطلب على نفسك
ولا أن تطلب على غيرك

تسبح الله دائما بقلبك ولسانك وقلبك ولسانك
ولا تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك

- عود

تسبح الله دائما بقلبك ولسانك وقلبك ولسانك

- ولا تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك
تسبح الله دائما بقلبك ولسانك وقلبك ولسانك
ولا تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك
تسبح الله دائما بقلبك ولسانك وقلبك ولسانك
ولا تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك
تسبح الله دائما بقلبك ولسانك وقلبك ولسانك
ولا تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك

تسبح الله دائما بقلبك ولسانك وقلبك ولسانك
ولا تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك
تسبح الله دائما بقلبك ولسانك وقلبك ولسانك
ولا تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك
تسبح الله دائما بقلبك ولسانك وقلبك ولسانك
ولا تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك
تسبح الله دائما بقلبك ولسانك وقلبك ولسانك
ولا تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك

- من تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك
تسبح الله دائما بقلبك ولسانك وقلبك ولسانك
ولا تطلب على نفسك ولا تطلب على غيرك

ثم غادر سريعا بعد أن أومأ له ياسين موافقا بالمشاق. أسرع بعد
تجاه أول سيارة أجرة استجابت لإشارته. وتمحورت أن اسطر حاجبه
حتى أخرج هاتفه فحربا اتصالا بصديقه فحبرا آياه بما حدث بصور
منقطع وبغير تركيز، فقال عادل على الفور وهو يمسح وجهه بين
الأخرى، محاولا إيقاظ حواسه التي كانت مزلت نائمة

- لا تفعل هنا يا هشام. عندما تصل إلى المستشفى وتطمس على
والدتك وزوجتك أتصل بي. وادهب انت حتى لا تقوت قطارك.
وأنا سأتكفل بالأمر.

أبواب المشفى كانت فعلة الا من الأبواب الخاصة بالعبادات
الخارجية الملحقة بها فقط فبعد الزيارات لم يمس بعد. دخل من تلك
الأبواب وحل بعدو بين أزقتها الطويلة تيملا ويسارا ثم استقل المصعد
المؤدي إلى الطابق المنشود، انطلق مباشرة من المصعد بعد توقفه. حيث
غرفة والدته. دلف إليها ببطء برأيه أولا وهو يدعو أن تكون جدائل
قد اتخذت نفس الطريق إليها. ولكن عينيه صدمت بالسرير المرافق
لسرير والدته خاليا، ولا يوجد أحد غيرها بالغرفة. وهي سائحة في نومها.
التفت عندما شعر بيد توضع على كتفه ثم صوت أنثوي يقول:

- ماذا تفعل هنا في تلك الساعة

التفت مستديرا للخلف فوجدتها الممرضة المسؤولة عن هذا الرواق
بكل المرضى الساكنين غرفه. زفر بتوتر ثم قال بخشوت:

- هل تعرضت والدتي لمضاعفات بالأمس

زمت الممرضة شفيتها وهو قسمي حادثة:

- كنا منتصل بك لو حدث ما تقول، والدتك نعيم وستخرج اليوم
ولكن ليس في هذه الساعة بالتأكيد

سألنا عن زوجته فأجابت بنفس الخلق أنه أول شخص تراه اليوم في
الرواق بأكمله، ثم طردته من الغرفة وهي تتوعد رجال أمن البوابات
المستاهلين!، خرج من المشفى بنفس الطريقة التي دخل بها، هاتفه
ملتصق بأذنه في محاولة ربما نجدي نفعاً، ولكن الهاتف القاطن بين
عميها انقطع ريثما مررت ومرت ومارال لا يرفع سماعته أحد، يكاد
يخن، نظراته تخرج بين الهاتف وساعة معصمه، لم يبق الكثير، لابد وأن
يتصرف، لم يكن أمامه حل آخر سوى إجراء اتصال أخير به عادل
ليطلع على التطورات ويرجوه أن يسافر بدلاً منه فكلاهما يستطيع
تنفيذ المهمة.

بحث عمي في كل مكان من الممكن أن تتواجد به، واتصالاته
المشكورة بمنزل عمي لم تتوقف، ولكن دون فائدة، إن كانت لم تذهب
إليهم فلماذا لا يجيب أحد على الهاتف على الأقل، الاتصالات لا
تجدي نفعاً!، الطوابق التي صعدنا بتردد بصحة والدته من قبل يصعد

سلمها الآن قفراً، طرقات وطرقات ولكن لا نجيب أبداً، مازالت
الرسومات على الحائط المجاور للشقة تستغزه وتثير غيظه أكثر، فتح
باب الشقة المقابلة وأطلت منها رأس امرأة أرمينية بلامح منحرفة،
ومن بين حافتي الباب ظهرت يدها تحمل منفضة غبار، هاتفة بعصية:

— من أنت وماذا تفعل ؟

استدار إليها محاولاً الاعتذار بتوتر ولكنها لم تصمت أو تتراجع وهي
ترمي باعتذاره عرض الحائط بتصميم شديد على أن يُعرف نفسه، لم يشأ
أن يدخل معها في جدال طويل، فالمنفضة في يدها الممتلئة ثنيء عن
قوة سلاح لم يختبره بعداً، فقال بأدب:

— أنا هشام، زوج جدائل التي تسم،

لم تُهله ليستكمل عبارته، ولكن هجومها هذه المرة مختلف وقد
تغيرت ملامحها إلى الترحيب والتبسط، حاول بشق الأنفس مقاطعتها
والسؤال عن جدائل وعمها، فأجابته بدهشة وهي تلوح بالمنفضة:

— لقد سافروا بعد زواجكما يا أستاذ، ألم تكن تعلم ؟!

من المؤكد أن هذا هو اليوم العالمي للدهشة والمفاجآت، متى
سافروا؟ وإلى أين؟ تلك التساؤلات مرت من عقله إلى شفثيه فلم تزد
المرأة إلا تعجباً وهي تقول مُثرثرة:

- والله لا علم لي يا أستاذ، ولكن زوجة عمها أخبرتني أنها في الأساس مستقرين في الخارج منذ سنوات طويلة مع أولادها الكبار ولم يأتوا هنا إلا لإجازة قصيرة، فهما لا يستطيعان ترك أولادهما أكثر من هذا وحدهم

يُصر هذا اليوم على أن يفقده عقله، لو كانت ما تقوله المرأة ذو المنفضة صحيح، فكيف قال له عمها بأن جدائل تعيش معه منذ أن فقدت والديها، جمعت المرأة شتات أفكاره مناديةً باسمه، رفع رأسه تجاهها دون تركيز، فقالت تسأله بفضول:

- لماذا تطرق الباب، هل ضاع منك المفتاح؟!

أجابها بنفاذ صبر بعد أن أرسل زفرة طويلة ربما تعود إلى شقتها وترحمه:

- ولماذا يجب أن يكون معي مفتاح؟

بعفوية وتلووينة أخرى من منفضتها وكأنها توبخه:

- لأنها شقة زوجتك، ويجب أن يكون معك مفتاحاً احتياطياً، أهذا

أفضل أم تصديع رؤوسنا بطرقاتك على الباب؟!

شقتها وليست شقة عمها؟!، مفاجأة أخرى أدارت رأسه وجعلته يشك بكل شيء كان يعلمه من قبل، جعلته يشير إليها أن تتوقف قليلاً ويسألها محاولاً الفهم:

- هل أنت متأكدة بأنها شقة جدابيل وليست شقة عمها؟

زهرت بصيقل وعلا رنين هائل منزلها فنظرت للداخل ثم التفت نحوه مجدداً وهي تخرج من صدرها مجموعة مفاتيح مجموعتين في سلسال من خيط الصوف، بأسنانها فكت عقدة الخيط وأخرجت منها مفتاحاً وحيداً وعادت تربط الخيط من جديد، مدت له يدها بالمفتاح وهي تقول على عجلة:

- زوجة عمها تركت لي نسخة من المفتاح لأي طارئ، تفضل خذ، أنا غير متفرغة لكل من هب ودب.

ألفت له المفتاح فتلقفه قبل أن يسقط وقبل أن يعود بنظرة المذهول إليها كانت قد عادت للداخل مُغلقة الباب في وجهه بنزق !.

ظل متجهماً مكانه للحظات، وأخيراً استطاع التحرك نحو الباب، أدار المفتاح وبسهولة كان داخل الشقة، لم يرى من تلك الشقة سابقاً سوى جزءاً من الردهة وغرفة الاستقبال التي دخلها أكثر من مرة بعد أن رأى جدابيل فيها لأول مرة، بتوجس دلف من غرفة إلى أخرى، رائحة الفراغ من حوله تخنق أفكاره وتشتتها أكثر، الآن هو في غرفة ضيقة بسرير خشبي صغير، ومكتب خشبي أصغر منه، خلفه مقعد له أرجل رفيعة للغاية خشبي أن يجلس فوقه فيحطمه، يده تعبت بلا هدف فوق سطح المكتب باحثاً عن شيء يدلّه في متاهته تلك التي دخلها يئزاده، أي إشارة لطريق العودة!، لفت نظره دفتر صغير مألوف لديه،

اسم ابنته جنى المدون عليه وفر عليه الكثير من محاولة تذكر أين شاهده من قبل، بمجرد أن أمسكه بين يديه تذكر كل شيء، إنه الدفتر الذى كتبت فيه هالة وصيتها له، وأخذته والدته من يومها ولم يره، هل حياته لدى جدائل؟!

قلب صفحاته بشرود حتى وقعت عينيه على الرسالة التى كتبتها هالة وتركتها لـ جنى و لجين، لم يقرأها تفصيليًا من قبل، فقط وقعت عيناه على بعض كلمات مكررة منها، بدأ يقرأها من البداية وحتى نهايتها حتى وقعت عيناه على جملة لم يكن ليلحظها فى ظروف أخرى "ولقد وصيت جدتكما أن تحتفظ بكل أشيائى لكما، لم أستثنِ إلا حجابى الرمادى، فهو لمعلمتكما رؤى التى ستصبح أمًا لكما بعد وفاتى، لقد خصصتها به لعدة أسباب، الأول لأننى أردت دعوتها بشكل غير مباشر لارتداء الحجاب، والثانى لأنه يليق جدًا بعينيها الرماديتين".!

مال عادل باتجاه رؤى التى بجواره بداخل القطار يتأملها وهى تنظر من نافذته بشغف كبير، عندما فاجأها صباحًا بسفروه السريع تشبثت به وهى ترجوه أن يصحبها معه فهى لم تزر الاسكندرية من قبل، وبرغم برودة الجو إلا أنه لم يستطع رفض رجاء عيناها وإلحاح كلماتها، كل ما استطاعه هو أن يؤكد عليها بأنها ستكون وحدها فى الشقة التابعة للشركة طيلة النهار تقريبًا، فالمهمة فى الأصل مهمة عمل، وهى وافقت

بسعادة، ستجلس في الشرفة تُشاهد البحر وأمواجه العالية في هذا الفصل من السنة وستجمد أطرافها، ولكن لا يُهم، المهم أن تراه ولو من بعيد، رجبا والداه وبالأخص والدته باستضافة طفله حتى يعودان في الغد، وهما يجلس في المقعد المجاور تستمع بكل ما يمر بها من حقول وحيوانات حتى أعمدة الإنارة المطفئة !، همس بأذنها مُداعبًا:

- سعيدة يا زيتونة ؟

إلفت نحوه بنزق وهي تذكره بخفة في ذراعه:

- توقف عن منادائي بزيتونة، وإلا رميتك من القطار الآن

ضحك بخفوت وهو يرفع كفيه باستسلام، وينبرة خاصة تُحبها قال:

- وهل ذنبي أن عينك سوداء سواد الليل يا زيتونة

أطرقت برأسها بخجل فوضع أنامله أسفل ذقنها ورفع رأسها مُتابعًا بعتاب وقد وجدها فرصة سانحة:

- ألن تقولي لحبيبك ماذا تُخبئين بقلبك

ألقت نظرة سريعة إليه فلاحظ غلالة من الدموع بدأت تتجمع بعينيها، مسح وجنتها بخنو ودفن كفها بداخل راحته الكبيرة وهو يربت عليه بمساندة و يحثها على الحديث قائلاً:

- تأكدي أن ما تداريه عنى لن يُغير من حيي لك شيئًا مهما كان

أدهمت عينهاها بسحب تنذر بحطول دمعها وتفضح شعورها بالذنب
نجاهه وقالت بصوت خافت مُتقطع:

- هل تعدني؟

أوما برأسه بثقة مؤكدا لها صدقه، وصدرة يضج في انتظار تلك
الحقيقة التي تخشى أن تبوح بها بقلّة صبر استطاع أن يُداريها حتى لا
تراجع، وهو يُتمتم بقوة:

- أعدك حبيبي

سمع تهدهاتها الناعمة المضطربة قبل أن تميل برأسها نحو كتفه وتقول
بحفوت:

- ولكن لا تُقاطعي أرجوك، هل تذكر اليوم الذي عدت فيه من
عملك فوجدتني أرتعش وأبكي واختبات في حضنك؟، لقد كذبت
عليك هذا اليوم عندما سألتني، أنا لم أفقد وعيي في المتجر كما
قلت لك ولم أقض اليوم مع عاملاته، لقد، لقد كنت عند جدتي
في منزلها

أنفض بعنف في مقعده وهو يستدير نحوها بجسده كله هاتفا دون
وعي:

- ثانية يا رؤى؟، تذهبين دون أن تُخبريني!، وماذا حدث هناك،
تكلمي

علا صوت نسيحها وهي تُجيب متألة:

- كيف أحرك وانت ترفض أن أذهب هناك. جديني هي من ربي
يا عادل ولا أستطيع تركها هكذا وقد بلغ بها المرض ما
أصبحت مقعدة ولا تستطيع حتى تناول دوائها، وهي كل ما
ترجوه أن أجالسها وأطعمها. ألسينا بعض الحكايا

ضغط كفها الذي مازال يسكن راحته بضعف وهو يقول بعصبته
التي اعتادتها منه عندما يغار بشدة:

- وهل تلوميني. ماذا لو صادف وجود ذاك الحيوان "خالك" هناك
ماذا كان سيحدث حينها؟

ارتخافها ذكرته قيمتها عندما عاد إلى بيته ووجدتها ترتجف فقال
بعنف بعد إدراك متأخر:

- هل كان هناك ذاك اليوم، هل تعرض لك من جديد؟

إنه اهتزاز كفها بوضوح وهي منظرها للأسفل نكم
شهادتها براحتها الأخرى بأنها تمكي بشدة، ولا تستطيع التوقف، هو
يعرفها. هي زوجته ويعلم كل خلجة بها. لا تنهار هكذا إلا إذا تعلق
الأمر بذاك الخال الحقيق. الذي لم تمنعه صلة القرابة من أن يستغل وحدة
وئمة ابنة أخته المتوفاة. ويحاول التحرش بها مرة بعد أخرى. إلا إنها
كانت تدافع عن عفتها بضراوة. لا ينكر عادل في بداية ارتباطه بها أنه

كان متفاجئا بعض الشيء من موافقتها السريعة على الزواج ولكن تلك المفاجأة لا تعني شيئا أمام ذهوله وهي تصارحه بذلك الخفيفة، وترجوه بأن يعجل بالزفاف، لتخرج من هذا البيت بأسرع وقت، فبالرغم من حبها لجدتها التي ربتها إلا أنها كل يوم تنام مرتعبة مما يمكن أن يحدث لها في الغد. لذلك منعها بعد أصبحت في بيته من زيارة جدتها وشدد على ذلك. الحالة التي تعانيها الآن تعني بأنها قابلته في ذلك اليوم. ترى ماذا فعل بها؟!

ترك كنفها وقبض على كتفيها وهو يديرها نحوه قدر استطاعته. هاتفا من بين أسنانه:

- أقسم بأن أقتله. تكلمي يا رؤى ماذا حدث منه

ففت منها شهقة ثانية ثم ثالثة وأصابعه تتعرج دون أن يشعر بكنفها فتولتها فقالت وهي تنالم:

- لقد قال لي بأنني الآن ليس لدي ما يمنعني عن قبول عرضه بعد أن تزوجت. وحاول لمسي وأنا خفت، خفت بشدة يا عادل. كانت عيناه دموية مزرعة. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أضربه على رأسه برجاحة الماء، فسقط أسفل قدمي فدرجا بدماءه. تصورت وقتها أنني قتله. ولكنه أصيب فقط.

أثمت عبارتها وقد فقدت القدرة على كتم شهقاتها فالتفت نحوها من جلسون في المقاعد المجاورة بفصول. ولكنه لم ينتبه إلا لها هي فقط. ترك

كفيتها وضمتها إلى صدره بقوة وهو يسبه ويوعده بالنقض. أعاد
ملتهبة حارقة والعليان يعلو بصدره وأفكاراً شيطانية نوسوس له بالعودة
إلى القاهرة وقرى قلبه بيديه العاريتين. دفست رأسها بصدره بقوة وهي
تحركها وتقول برفض. فبللة سترته بدموعها المبهدة على فله غرقه.

- لا تفعل يا عادل أرجوك. لا تجعله يأخذك مني. أنت كل ما نفي
في الدنيا. أرجوك سامحي أنني ذهبت دون علمك لم أكن أعلم
بأنه يتواجد في تلك الساعة. جذني مرهبة وأنا لا أريد إعصاك
فماذا أفعل؟

سكت لدقائق طويلة وتركها تفرغ كل دموعها على صدره وعندما
هدأت قال بصوت عبق جداً. وكالة آت من عبق نر سحيق.

- أسمعك حبيبي. جدتك سأفعلها في بيما لنقومي برعايتها كما
ألحني. أما ذلك الحقير فلن يفلت من يدي.

رفعت رأسها إليه والامتنان بتدفق بعينها المتورمتين من البكاء.
استطاع رسم انصامة وأهية على شفاهه لطائفها ولكنه وحدها تطرق
مرة أخرى برأسها قبل أن تجلد نفسها قائلة.

- ولكن. أنا لا أستحق ما تفعله معي. لقد خدعتك!

أمسك وجهها ورفعها لينظر إليه. وهو يشعر بأنه لم يسمعها جيداً:

- ماذا؟

أعادت رأسها إلى صدره تحتمى منه به، وهي تقول مُعترفة لمجمل غير
مُترابطة:

- صدقني أنا لم أكن أقصد، لم أنو خداعك، كنت فقط أريد ترك
بيت جدتي، كنت أخشى على نفسي لذلك سكنت، اليوم الذي
رايتني فيه للمرة الأولى في دار الروضة التي أعمل بها وفتحتني لي
الزواج، أنا علمت بعدها بأنك لم تكن تقصدني أنا، كنت تقصد
رؤى أخرى، غيري !!

النهاية

بدت غير شاردة جدًا وهي تجمع متعلقاتها من فوق سطح مكتب
بداخل المركز الطبي وقد انتهى وقت عملها في انتظار حضور روبي
الدكتور بلال لتحدث معه فيما حدث اليوم صباحًا. عندما شاهدت
ياسين يجده المكنز وقامت القصيرة يقف أمام جهاز التعقيم تغير
أدوات الحجامة ويعتمها وهو يتحدث إلى نفسه بصوت مسموع كس
يحاول حل شفرة ما. وعندما سأله عما به وهي تتصور بأنها مشكلة
جديدة مع زوجته. فاجأها بالقصة التي انتشرت باخي عما دار في شقة
هشام والنصاب الذي كاد أن يودي بحياة والدته وزوجته. والكلام الذي
تناقلته جاراتها فيما بينهن عن الحالة التي أصبحت عليها زوجته فذ أن
عادت من المشفى بالإضافة إلى مغادرتها قبل شروق اليوم في حالة يرثى
لها. زمت شفتيها باستياء وهي تلقى باللوم على والدته هشام التي نقلت
كل ما يحدث في بيت ولدها إلى تلك المدعوة عنبر. من المؤكد أنها
بتلك المعلومات التي قامت بتسريبها إلى ذلك النصاب عبدالفتاح
ساعدته على إيهامهم بما يريد بسهولة لتحقيق مآربه. ولكن شعورها
بالشفقة على المرأة العجوز غلب عليها في النهاية وهماي تُفكر في

زيارتها بالمشفى فلربما كانت تحتاج إلى مساعدة في تلك الظروف الصعبة
لنى يعرفون من نفثها

ذلات طرقات تعرفهم جيداً جعل وعينها يظن من حميد فوق
سطح أفكارها. راقبت دخوله خجرتها تنحية منقعة بالسمامة لجم
عظيها بما وحدها. تلك الابتسامة التي التفتت من عصبه إلى نصبه
فلست سريفاً أظافر ظلال مشاعر سليمة نجوم حول قلبها. كغشاء
العريضتان أحملنا مجال رؤيتها. مما نجر نظراتنا ان نخط على خبثه الملهدة
بعناية. رنا نحوها وهو يعدل من وضع نظارته الطبية الأنيفة فوق عينيه
بحركة اعتيادية وهو يقول:

- لا داعي لكل هذا الإعجاب في عينيك. فانا رجل متزوج.
للأسف!

لقد سنوات وهو يستطيع استمالة ضحكاتها رغبتا عنها. قدومه
تخفيها الجلدية فتلقفها في الهواء وهو يقترب منها بجرح ويرفع غطاء
وجهها فقبلاً جبهتها فدفعته لدعابة استياء كاذب من اقترابه الذي لم
يلق بالمسافات بينهما يوماً. هاتفة بغيظ الحب:

- تحسن حفظك أننى لست في مزاج جيد هذا اليوم

لم يندهش كثيراً، فهو يعلم أنها بحكم عملها واختلاطها بأنواع مختلفة
من صنف النساء من الممكن جداً أن يتعكر صفوها أو تفقد القدرة
على الصبر آخر يومها. هو أيضاً بحكم عمله يحدث معه ذلك وأكثر

ولكنه يشدق كل هذا عند قدميها في تلك الدقائق القليلة التي يلبس فيها بعد عودته من المشفى وبداية عمله في مركز العلاج الطبيعي خاصته. جلس على المقعد المقابل لمكسيها وهو يخلع نظارته عن عيه مدلكاً أعلى أنفه وهو يقول ببساطة:

- الأمر يعود إليك حسبي. لو العمل هنا يرهقك فلا داعي منه وتفرغ للأولاد فقط

ثم انفتحت نحوها متذكراً أنه لم يسأل عن أطفالهما.

- على ذكر الأولاد. أين هما الآن يا نرى؟

جلست بدورها على مقعدها الخلفي خلف مكسيها. وتفرغ بعومة قائلة:

- أختي عزة هنا في احدة ولقد أصبحت على اصطحاب الأولاد من المروضة إلى بيتها اليوم. ومن المفترض أن الحظ قسم عندها الآن. ولكن حدث أمر غير وجهتي.

أوما برأية باهتمام يخلها على التحدث شدات نسرد عليه ما أخبرها به ياسين في الصباح. ورعيتها في زيارة أم هشام في المشفى وقد ساءت حالتها كما علمت، فهي كل الأحوال المرأة كانت تعرض على زيارتها بشكل دائم وتتودد إليها وقد أحبتها للغاية رغم عدم رضاها عن بعض من تصرفاتها مع زوجة ولديها الراحلة

تعدده يذكر قليلاً قبل أن يحسها عن امر كهذا. وكعادتها تسيطر
 فرزة الذي لم يكن يوماً ضد رعبها إلا نادراً. وأخيراً تأمر هذا الصبر
 بالحصر ليعر إلى موافقه بسلام ولكنه اشترط أن يصطحبها بنفسه إلى
 هناك حتى يطمئن عليها. ففص من مجلسه وهو يشير لها بأن تسدل
 عبا، وحجبها فحذفاً. خرج من العرفة متوجهاً نحو عرفة الكشف الخاصة
 به. فوجد ياسين يهيم بها ويترنبا قبل بداية العمل. وطلب منه تأجيل
 مواعيد المرضى إلى ما بعد صلاة العشاء ليكون لديه متسع من الوقت
 وهو يصطحب زوجته إلى زيارة أم هشام. أعلى الامتنان في عيني ياسين
 عن نفسه بوصف وهو يهتف شاكرًا له بحساس وتقدير

جلست والددة هشام على فراشها الأبيض وقد ارتدت جميع
 ملابسها مستعدة للخروج من المستشفى، وأمامها حقيبتها الزرقاء الكبيرة
 التي جهزت فيها أغراضها مسطرة محي، عاقل. فهي تعلم بسفر هشام
 مقر الشركة وبأن عادل هو من سيصطحبها إلى المنزل. عندما أخبرتها
 الممرضة بأن ولدها حضر باكراً جداً ظلت بأنه كان يريد الاطمئنان
 عليها قبل سفره. وهامى الساعات ثم وجدائل أيضاً لم تأت .

ضربت الأرض الملساء بعصاها وهي تزفر متسلمة بجلستها. وهي
 تستعد للهبوط بنزف. ستخرج وحدها وتعود للمنزل وستضربهم جميعاً
 بالعصاة على رؤوسهم حتى قتلها. طرقات خفيفة جعلتها تكافح

تقدم افكارها العيفة بالتواضع، تملل وجهها فجأة وهي ترى غير ذلك
من الباب يخرج بالغ وتُحبها بحفوت، عرفتها بالرغم من غطاء وجهها أو
كما تقول لها دائماً - أستطيع تمييزك من بين مئات المنتقيات

أخبرتها غير بأن ياسين قص عليها ما حدث لذلك أنت لزيارتها وإن
زوجها بلال ينتظر في الخارج، أصرت المرأة على دخول بلال وقد هاد
وجوده بالخارج كالمطرود، تركت غير وخرجت إليه وهي تُقسم عليه أن
يدخل ويجلس معهما بالداخل، كان متخرجاً بشدة ولكنه لم يستطع
مقاومتها وخصيصاً وهي مُقدمة على جذبه من ذراعه، فاختار الدخول
بكرامته أفضل !

كل ما قالته لها غير كانت تعرفه لذلك لم تُعلق إلا بمصمصه شفاها
وهي تتحسر على ذكاتها الضائع ولكن جملة غير الأخيرة والتي نقلتها
عن ياسين عن خروج جدائل بتلك الهيئة ثم تبعها هشام بهيئة لا تقل
عنها تشعناً هو ما أثار ربيتها وشرودها من غرابة ما تسمع .

فُتح باب الحجرة دون استئذان، وبلا وعي حاضِر دلف هشام بحمل
دفتر ابنته جنى بيده، وبالرغم من سقوط نظراته على بلال وغير ولكن
إدراكه سقط على والدته فقط وهو يمد لها الدفتر بيديه مؤشراً بأنامله
على العبارة التي جعلته يدور حول نفسه منذ أن قرأها في شقة جدائل
قائلاً بصوت مشحون:

- فقدت قدرتي على الفهم، أفهميني أمي، جميعكم خدعتموني
اليس كذلك؟!

زفرت والدته بعدم رضا وهي تنهض واقفة مُنحنية الظهر قليلاً وهي
تُجيبه زاجرة:

- أنت السبب، رأسك كان كالحجر، رفضت رؤى دون سبب لمجرد
أنها كانت تعمل وكأنها وصمة عار بالرغم من أنني أكدت عليها
بأنها لن تعود للعمل مُجدداً، اخترت راحتك على مصلحة بناتك،
وتناسيت أن اختيار رؤى من الأساس كان لأنها الأقرب إليهما
وتعرف كيف تتعامل مع حالتهما، ولكنك فكرت في راحة بالك
فقط .

أنحنى بلال نحو عبير الجالسة بجوار الفراش تشعُر ببلاهة مما تسمع
من الحوار الدائر وهمس لها ليرحلا، فال موضوع المثار عائلي للغاية، بمجرد
أن نُحضت عبير وهي تستأذن للمغادرة، قبضت المرأة على ذراعها قائلة
بعصبية زائدة:

- انتظري يا دكتورة عبير سأرحل معكما لا أريد البقاء مع هذا
المعتوه

عاد إدراك هشام يعمل من جديد على بقية مساحة الحجرة دون
والدته والتفت بحدة لم يقصدها نحو عبير وقد كانت بالنسبة له كسفينة

إنقاذ أخته وهو يصارع أمواج بحر يوشك على الهلاك فيه، وهتف وهو يقترب منها خطوة واسعة:

- أنتِ الدكتورة عبير؟، كيف لم أفكر بك من قبل وأنا أبحث عنها في كل مكان، أين أجد زوجتي الآن أخبريني؟

تلك الخطوة كانت كفيفة بأن تجعلها مأسورة خلف جسد زوجها الذى وقف أمامها مباشرة واضعاً يده على كتف هشام بخشونة ولسانه ينطق بشراسة أقل حسيماً من التى انطلقت شرارتها من عينيه:

- اقترب خطوة أخرى وستندم صدقنى !

رفع هشام نظره بدهشة نحو بلال وكأنه لم يلاحظه إلا الآن، بينما تدخلت المرأة بينهما وهى تسحب ولدها بعيداً عن يد بلال، فالوضع لن يكون متكافئاً أبداً، بالإضافة إلى ضيق صدرها الذى شعرت به وقد فاض بها الكيل مما يمجج به، يكفى مُداراةً وصمتاً وليفعل ما يفعله لقد تعبت، أبعدته الخطوة التى اقتربها وهتفت غير مبالية بوجود آخرين معهما:

- الدكتورة عبير لا تعلم شيئاً عن جدائل، ألا زلت أعمى البصيرة حتى الآن؟، أنا بالفعل طلبت منها أن تُرشح لي عروساً لك ولكنها لم تجد من توافق على ظروفك العائلية، وبما أنك لم ترَ رؤى حتى، وركبت رأسك ورفضتها دون أن تعلم حتى اسمها اضطرتت

أن أسألك وأخبرتك أن هناك عروسًا أخرى من طرف الدكتور
غير .

غرز هشام أصابعه المرتعشة بين خصلات شعره بقوة ثم يحرك رأسه
يمينًا ويسارًا كأبله لا يفهم ما يُقال له بوضوح، ولكن كيف؟ فتح الدفتر
مرة أخرى ونظر لسطوره وهو يهذي بالعبارات الغير مترابطة التي تطحن
عقله بلا هوادة:

- أمي، هالة تقول في وصيتها للفتاتين أن رؤى مُعلمتهما غير مُحجبة
لذلك أهدمتها وشاحها الرمادي لأنه نفس لون عينيها، ورؤى زوجة
عادل هي نفسها مُعلمة البنات ولقد كانت غير مُحجبة بالفعل
ولكن عينيها سوداء، أنا رأيتها بنفسى عندما ذهب عادل ليراها
في الروضة، وجدائل زوجتى عينيها رمادية ومستديمة على ارتداء
حجابها الرمادي، سأجن بالتأكيد !

زفرت والدته بضيق ولكن الحدة خُفّت في نبراتها وهي تربت على
كتفه بتفهم:

- رؤى زوجة عادل ليست هي رؤى نفسها التي أوصت لها هالة
بوشاحها، هي زميلتها وقد كانت تعمل معها بالروضة، حدث
خلط بينهما عندما ذهب عادل ليراها، ولو توقفت عن مناداة
زوجتك بجدائل لحل الموضوع من تلقاء نفسه .

وكأنها ضغطت قابسا أحمر كبيراً في عقله، أضاء بضوء الإدراك
المُتأخر دافعا إجابات منطقية لكل أسئلته بتلافيف عقله بقوة وسرعة
وليدة. عندما استقبله عنها وقتما ذهب لرؤيتها، حدثه عن مدى
ارتباطها بوالدها رحمه الله. ومدى تدليلها حتى أنه أطلق عليها اسم
جدائل كتدليل لها. جدائل اسم جدتها من أبيها وكان ذلك سببا لكي
ليجعل والدتها ترفض أن تكتبه في شهادة ميلادها. وأصرت أن يسجلها
باسم رؤى!. ومنذ ذلك الحين والجميع يناديها بـ جدائل إلا والدتها
وبعض من زميلاتها. لذلك أحب هو أن يناديها بد ليُشعرها بالألفة تجاهه
منذ اللحظة الأولى حتى نسي أو تناسى اسمها المسجل بالأوراق "رؤى".
لم ينتبه إلى تلك الحقيقة في البداية. اعتبره مجرد تشابه لا أهمية له.
ولم يكن له أهمية وقد تزوجها صديقه وانتهى أمرها بالنسبة له!. والدته
خدعته بمكر. ولكنها ليست وحدها !

رفع عينيه إلى والدته والغضب يُحدد مشاييد وسوادها بخطوط لا تقل
سوادا عن لونهما وهو يهمس من بين أسنانه :

- وبالتأكيد زوجتي الفاضلة وعينيها المهذب وافقا على تلك الخطوة.
وكنتم تضحكون فيما بينكم على الأحق الذي صدقكم جميعا

أزاحت يدها من فوق كتفه سريعا وكان لمسته تحرقها واستندت
بظهرها بإرهاق بدا على وجهها وجعل جسد عبير يتحفز تلقائيا

استعدادًا للسقوط الذي سيحدث بين لحظة وأخرى ولكنها وجدت المرأة تستعيد بعض من قوتها بعد أن تنفست بعمق ثم قالت له:

- يا بني افهم. جدابيل زوجتك..

قاطعتها ضحكته العصبية الساخرة وهو يهتف :

- تعين رؤى زوجتى. أليس كذلك!

عادت تنفس عيقًا من جديد فستعينة بعصاها تلقي ثقل جذعها عليها قبل أن ترد بجذوة لا يتناسب مع الضيق الذى يعترى دواخلها:

- نعم رؤى زوجتك. كانت وحيدة جدا يا ولدى بعد أن فقدت

والدتها أيضا، وعصيا وزوجها حينما مستقرة خارج مصر، رؤى

زوجتك هي من هاتفتها وهي تسكن راحية إباد أن يأتى ولو لزيارة

قصيرة لمساعدتها على نقل والدتها إلى الشقة الجديدة التى أجبرتها

إحدى حاراتها على الانتقال إليها وقد ستموا صراخ أمها كل ليلة.

لذلك ترك عصيا وزوجته أولادهم هناك وجاءوا إليها ولكن

للأسف بعد انتقالهم بيوم واحد هربت والدتها عائدة إلى شقتها

القديمة وهناك ماتت فمخرقة أعادنا الله. كانت الفتاة ضائعة تماما

وبالأخص وهي تعلم بأن عصيا وزوجته سيعودان مرة أخرى بعد

فترة قصيرة وستصير وحدها تماما. أنت وبناتك كنتم آخر أمل لها

في الحياة فإذا كنت تريدنى أن أفعل. أتركها وقد وصتنى عليها

هالة رحيما الله.

دون أن يرى وجهها شدد مُسانداً على كشفها بعد أن أحاط
بذراعه. كان يعلم أنها تبكي في هذه اللحظة نائلاً بما تقوله المرأة من
حكايا عن تلك الرؤى. كم من أبواب مُغلقة يحصل خلفها ما لا يمكن
تصديقه. منه ما ينسل من أسفل بابها، ومنه ما يُحكى على العلى. ومنه
ما يؤسر بقلوب شوج به وحدها، قلوب رأت كل شيء. حتى مات فيها
كل شيء. تلاطم الحديث العاصف أجبر بلالاً على الخروج من ثماره
وهو يسمع هشام يهتف بدهشة:

- معنى هذا أنها هي من كانت تكتب وترسل تلك الرسائل إلى
الجملة. ولكن كيف لها بتلك الأسرار. هل هالة تزورها بالفعل، هل
أجبرتها، هل اختطفها كما توعدتني. هل هي في خطر الآن؟ ماذا
يحدث لي. كلما حللت عقدة تُسرّع إلي حياتي أختها؟!

أخى كلماته وهو تمسك برأسه. يشعر به على حافة الإنهيار. لم
تستطع والدته كنم فضولها. سأله بتربخ خوفاً من انفجاره عن تلك
الرسائل التي يتحدث عنها. ترك جسده ينزلق كورقة في مهب الريح إلى
الأرض الباردة مُسنداً بظهره إلى الباب المُغلق. الغليان الذي تضج به
عروقه جعله لا يشعر بتلك البرودة القارصة التي بدأت تلف الحجرة
أكثر فأكثر كلما غربت الشمس وهو يقص عليها ما أراد أن يُخفيه من
قبل. وكلما توغل بين غابات حكاياته كلما تملل بلال في وقفته وهو
ينظر عبر وكأنه يسألها النصيحة. الأمر بات مُخرجاً بالنسبة لها كثيراً،

هشام يقول أشياء تُسود فيها صفحات كتابه !. لولا استناد هشام وهو في تلك الحالة لباب الخجرة لسحب زوجته وخرج منها دون أن يلتفت لرفض المرأة وتشبهها به غير. هذا الزوج المُعذب يُثير عجبنا لا إعتابه. لو كان ذو فطنة ولو قليلاً لما كابد كل تلك المعاناة !.

اتبه في تلك اللحظة على صوت زوجته المُشبع بالبكاء وهي تسأل تلقى على رؤى ويخفأ موجه نحو هشام وحده. وكأنها تعرف رؤى منذ سنوات غابرة وتنافح عن قضيتها:

- هل سنجلس هكذا نضيع في الوقت بأحاديث ليست ذات أهمية. ولا نعلم مصير الانسانة المختفية منذ الصباح وحتى الآن؟
فتمت والدة هشام وكأنها لا تعلم أنها دروسها:

- كنت على حق عندما ظننت أن روحها تسكن الشقة!

اتسعت عيناها شيئاً فشيئاً وهي تتابع بصدمة:

- معقول. هل من الممكن أن تكون أخذتها معها تحت الأرض!!

شهقت بصوت مسيوع عندما علت طرقات عصبية على باب الخجرة. تحرك بلال فسرعا وهو يساعد هشام على نخوض مُمسكاً أياد من كتفيه. فتح الباب ودلفت الممرضة على عجلة من أمرها تسألهم للرحيل. فينالك حالة أخرى تنتظر.

سرت بعض المهمات في المقعد الخلفي للسيارة بين عمير ووالدة هشام. بينما ولدها يجلس صامتا بجوار بلال بداخل سيارته. اضطر للموافقة وقد ألح بلال على أن يقلعهما بسيارته إلى المنزل. الآن وقد استوت الأمور برأسه أكثر من ذي قبل وبدأ يهدأ ويفكر بعقلانية منطقية على نفسه يستند برأسه إلى زجاج النافذة المغلقة بجواره. لا مفر أمامه من استكمال البحث عنها. بل لا مفر من العنوان التي أعطته والدته إياه وهي تقول له بعقوبة:

- هذا عنوان الشقة رؤى القديمة التي صجرتك بعد أن احترقت فيها والدتها.

عنوان أثار بعض مخاوفه. ذكره بما فراد من حلال يريد بين الناس. وهي تتحدث عن الشقة وعن يسكنها من الصباح من كانوا يسكنوها يوما وهم أحياء. والدتها. والدتها. هالة التي تعدهما بالشر. وسؤال حول رؤى يخشى الإجابة عنه منذ أن استقل السيارة. ترى هل مازالت حية؟.

بدأت قطرات الأمطار القليلة ثقيل زجاج السيارة الأمامي وهو يراقبها وكأنه يخلصها. أخرجه صوت بلال الهادي من حساباته عندما سمعه يتسائل:

- علمت بأنك حررت محضرا لذلك النصاب عبد الفتاح، فهل هناك جديد؟

تنجح هشام ليجلى حنجرته صارفاً أفكاره بعيداً قليلاً عن عقله
الآن :

- المحامى أبلغنى بأن الرجل حُرر ضده محاضر كثيرة من قبل وجاري
البحث عنه، حتى عنبر التى لم تظهر سوى بعد أن علمت أن
والدتى بخير، عندما قبضوا عليها لم تستطع أن تدلهم على مكان
سكن مُحدد له ولا زالوا يحتجزونها لديهم حتى الآن.

أوما بلال برأسه، وهو يُحاول فتح أحاديث جانبية مع هشام حتى
يصلوا إلى منزله، لقد استطاع أن يقرأ عينيه ونظراته المضطربة ووالدته
تمنحه عنوان الشقة المهجورة وتحدثه عنها، لذلك أراد صرف أفكاره
لبعض الوقت ليتمالك جأشه ولو قليلاً، ليستطيع المواجهة، لا مواجهة
الموقف، بل مواجهة مخاوفه!، فالمخاوف لا قيمة لها دون أن تؤمن بها،
وَنُصَدِّقُهَا !.

- ياسين جارك فى نفس البناية، أليس كذلك؟

- نعم

ابتسم بلال وهو يُدير عجلة القيادة قائلاً بثقة:

- هذا يؤكد لي أن المحامى الذى نتحدث عنه هو فارس سيف الدين

التفت هشام نحوه بابتسامة صغيرة متسائلاً:

- كيف عرفت؟

ضحك بلال بخفة وهو يُجيب ببساطة:

- ياسين يُحب فارس جدًا ويجمع له الزبائن من كل مكان

ابتسامة ضائعة ارتسمت على شفتيه وقد بدا الاهتمام يظهر على
نبرات صوته:

- هل تعرف الأستاذ فارس؟

ظهرت التسلية على ملامح بلال وهو يقول بخداس:

- صديقي منذ سنوات. منذ أن كان مضطراً على مواجهة الشياطين
هو أيضاً. ولكنها كانت شياطين الإنس. وصديقي هؤلاء من يستحقون
خوفك بحق، سأحكى لك قصته فيما بعد. بعد أن تنتهي من أشباحك
الخاصة.

أخى كلماته وهو ينظر في المرآة أمامه يبادل غير النظرات بابتسامة
وهو

في هذه اللحظة كانت والدته هشام قد يدها واضعة إياها على كتف
ولدها من الخلف وهي الأعراف بحالة في تلك اللحظة قائلة:

- سأذهب معك إلى هناك لا تقلق

** شخصيات فارس وبلال وغيرهم من أبطال رواية سابقة بعنوان - مع وقف التنفيذ -

حرك هشام رأسه نفيًا وقبل أن يجيب سمع بلال يتدخل قائلاً بحسم:

- لا يا خالة، سأقلبك أنت وزوجتي لبيتك وسأذهب أنا مع هشام

ثم وجه حديثه إلى عبير مُذكرًا أياها:

- حبيتي، لا تنسي أن تهاتفى أختك لتطمئني على الأولاد وتعلميها

أين أنت

أدار هشام رأسه نحوه بنظرات مُستنكرة، هل يقول لها حبيتي أمام الناس؟، هكذا ببساطة وكأنه يناديها باسمها !.

أوقف بلال السيارة أمام البناية ولا زالت قطرات المطر الخفيفة تداعب وجهه عندما ترحل هشام من السيارة صاحبها في تلك اللحظة صوت آذان المغرب يصدح من المسجد القريب، دار حول السيارة من الأمام ليوافقه بلال الذي ترحل هو الآخر مُوصداً بإيها خلفه، مُستنداً إليه وهو يُراقب خطوات زوجته إلى أن اختفت داخل البناية ثم استدار تجاه هشام واضعاً يده على كتفه وهو يقول بأريحية وكأنه صديق قديم:

- نُصلي المغرب ثم ننتقل إلى هناك، سنجدها إن شاء الله، لا تقلق؟

أوما هشام موافقاً وهو يشعر بالألفة معه، بينما كان قلبه يُعاتبه مُتسائلاً عن آخر مرة دخل فيها المسجد مُصلياً؟!

عندما انتهت الصلاة وخرجنا من المسجد ركضنا إلى السيارة وقد بدأ المطر بارسال زخاته إلى الأرض مُعلنًا عن انتهاء وقت الدعاة بريق صاحبه رعد شق السماء المظلمة، كظلمة مخاوفه التي لم تنطفئ نجومها بل تومض بقوة اعتقاده بها.

الشارع المظلم الذي ولجته السيارة بمساعدة مصابيحها والذي لم يكن خاليًا تمامًا من المارة، لازال البعض يدخلون إلى البنايات فيه جريًا تجنبًا للمطر والبرك التي صنعت لنفسها زوايا حيوية منه كفخاخ للبشر.

أوقف بلال السيارة جانبًا ببطء وحذر إلى جانب السيارات المرصوفة والمغطاة منها إلى جانب البناية المقصودة تمامًا، ترجلا من السيارة سريعًا قاصدين مدخلها مباشرة قبل أن تبتل ملابسهما بالكامل، الأضواء القادمة من الطابق التالى هي التي كانت تمد غالبية الطابق الأرضي حيث شقة رؤى بالإضاءة، فالمصباح الخاص به مُغطى بالغبار وإضاءته ضعيفة للغاية، رعشة صدمت أوصاله عندما وقعت نظراته على الشقة المنزوية خلف السلم قليلًا حيث ظلال الأضواء تقع على جزء منها صانعةً ظلالاً خادعة للنظر، رائحة الفلفل الحارق مخلوطًا بروائح أخرى مُغلقة بالغبار تصل إلى أنفهما بشكل مُزعج، تحولت نظرات هشام إلى بلال الذي يقف بجواره يتأمل المشهد بتفاصيله وقال بضياء وكأنه تذكر للنو أن لكل شقة مفتاحًا يخصها:

- كيف سندخل ؟

مط بلال شفتيه وهو يضع يديه في خاصرته متسائلاً وهو يقيم
الباب بنظره:

- ما رأيك، نكسره؟!

بعد ما يقرب من نصف ساعة كان هشام يُمسك بمفتاح الشقة بين
أصابعه المُرْتَعِشَة وهو يقترب بخذر من الباب مُتَحَلِّياً بشجاعة ظاهرية،
بينما بلال بجانبه يسانده بنظراته ويومئ له برأسه، ومن خلفهما يبضع
خطوات تقف فتحية صاحبة البناية وبجوارها زوجها بعد أن كانت
رافضة أن تمنحهما المفتاح خوفاً من خروج اللعنة إلى بقية الطوابق
وطوال الدقائق الماضية وهما يتجادلان معها في محاولة إقناعها ولكن
لا جدوى، لولا تدخل زوجها الذي قلق بالفعل على رؤى بعدما علم
بأنها غائبة منذ الصباح وزوجها يبحث عنها، وهما هو وبعد معاناة معها
يقف بصحبتهما خلفهما في انتظار النتيجة .

دفع هشام الباب بحرص ففتحه على مصراعيه أثناء ما كان بلال
يهمس له بتخرج وهو يفكر بأنها لو كانت بالداخل فبالأكيد ستكون
مُتَكَشِّفة ولو قليلاً:

- هل تريد أن تدخل أنت أولاً؟

ابتلع هشام غصة بحلقه الجاف وعيناه تحاول اختراق الظلام
بالداخل، في محاولة ضعيفة للإجابة ولكنه لم يستطع نطق كلمة واحدة
عندما تسلل إلى سمعه همهمات آتية من الداخل، وفجأة ودون

مقدمات، دوت صرخة جعلت فتحية تقفز بين ذراعي زوجها الذي تمتم
بالاستعاذة على الفور وهو يتراجع بها خطوة للخلف كرد فعل غريزي،
أما هشام فلقد انزلت حرفيًا كُتلة من الثلج من أعلى ظهره وحتى نهايته
وصولاً لقدميه، والبسمة لا تُفارق شفتيه، إلا أن خارجه كان صامداً
كرجل أمامهم دون أن يسمح لقدميه بخذلانه، عندما شاهد بلال يتخذ
خطوات ثابتة للداخل تبعه دون تفكير، يدها تتحسس الجدار بترقب في
انتظار شيء ما سيقبض عليه في أية لحظة، فجأة أضيء مصباح الردهة
فالتفت ليجد بلال يرفع يده من فوق زر الإضاءة خلف باب الشقة
مباشرة ثم قال بخفوت:

- إعتياد أعمال الكهرباء تنفُج أحياناً

زفر براحة وهو يدور ببصره بين أركان الشقة وركام الأتربة الذي علا
كل شبرٍ منها يُخلخل ظنونه بوجودها هنا من الأساس، في الاتجاه الآخر
غرفة مُحترق جزء من بابها ومتهالك للغاية، عندما نظر بداخلها، حيث
الجدران المحترقة السوداء، شعر بأنه داخل غرفة خُصصت لتحضير
الأرواح كما كان يُشاهد في بعض الأفلام القديمة، لم يدرك أن لسانه
يُتمتم بما يدور بذهنه في تلك اللحظة إلى عندما سمع بلال يقول مُعقبًا:

- الأرواح التي يقبضها ملك الموت عند انتهاء أجل أصحابها
تذهب إلى عالم البرزخ، ولايستطيع أحد إحضارها من هناك

رفع هشام عينيه إليه بصمت يلاحقه إهتزاز مُقلتيه، فتهد بلال
بعمق وهو يُجادل بنظراته عيني هشام المُتشككتين، أصنام الجاهلية
هُدِمت بقلوب من كفروا بها قبل سواعدهم، فهل تقدر قلوبنا اليوم على
كسر أصنامنا الخاصة؟!

حاد هشام بنظره بعيدًا نحو الممر المؤدى لغرف النوم، لم ينتظر هذه
المرة نظرة تشجيعية من بلال، رجولته أبت ذلك، وفكر كما فكر بلال
من قبل باحتمالية وجودها بالداخل مُتكشفة، إن كانت موجودة من
الأساس، مرت عيناه سريعًا على الغرفة الأولى، فارغة سوى من أثائها
فقط، لفت انتباهه خف منزلي موضوع بعناية فوق الأرضية المُتغيرة
أسفل الفراش في انتظار قدمي صاحبه، سرت قشعريرة في جسده
واستكمل ازدراد ريقه وهو يستكمل سيرة للغرفة الأخيرة، كانت مُغلقة،
وقبل أن يمد يده ليتناول مقبضها ويعتصره ألقى نظرة للخلف، وشعوره
بتلك الإنقضاضة الخلفية يلازمه دومًا في كل حركة يقوم بها، دفع الباب
فجأة وهو يقف على عتبه كما فعل مع باب الشقة ونظرة واحدة إلى
الداخل جعلته يهتف بلوعة وهو يراها مُلقة على الأرض شاحبة الوجه:

- جد ايل !

انحنت عبير وهي تُطعم الفتاتين وتُداعبهما بينما والدته هشام تجلس
أمامها وتناظرها بامتنان شديد، منذ يومين وهي لاتفارقها إلا لساعات

قليلة، طلبت من ياسين تأجيل جميع مواعيدها في المركز الصحى، وتظل معها هي وأولادهما في بيتها من بعد الظهر وحتى يأتى زوجها ليلاً ليقلها وأولادهما إلى المنزل، زوجها الذى لم يترك هشام منذ أن وجدا رؤى في شقة عائلتها القديمة مُلقاة أرضاً شاحبة كالأموات، وفي المشفى ازدادت حيرتهما عندما قال الطبيب:

- صحتها جيدة، مجرد هبوط لا أكثر إلا أنها لا تريد التحدث مع أحد !

وعندما دخل هشام إليها في حجرتهما بالمشفى لم تنظر له وظلت عينيها معلقتين في الفراغ، وحين أمسكها من كتفيها ارتعشت ونفضت يديه بقسوة وكأنه أخرجها من مكان تحبه عنوة، ولما ناداها باسمها المحبب:

- جدايل

ظهرت على وجهها ابتسامة لا حياة فيها، ابتسامة تشفى، وتجمدت نظراتها بجفاء داخل عينية وهى تُحرك شفتيها الباهتتين وتهمس بنبرة خافتة شرسة :

- جديلتك هذه تركتها ل هالة كما تركت أُمى للنار

لم يملك بعدها إلا أن ينصاع لنصيحة بلال عندما قال له:

- زوجتك تحتاج إلى مصحة نفسية، أنا أعرف طبيبا نفسيا جيدا
يعمل في واحدة

وتم نقلها إلى المصحة ومن يومها وحتى الآن وهي تخضع لجلسات
نفسية لتحديد نوعية مرضها المجهول هذا. ولقد كان من المستحيل
تقديم هويته دون أن يعرفوا ما حدث لها بالضبط وهل لها تاريخ مرضي
أم لا ؟. كانت الخيوط مبعثرة، ومهمة الطبيب في جمعها كانت صعبة
للقاية. منحته والدته رقم هاتف عمها في الخارج وعندما علم بخالتها
وعدهم بالحضور السريع قدر ما يستطيع .

رفعت والدته هشام رأسها التي كانت تستند بها على رأس عصاها
وهي تقول موجهة حديثها نحو غير مفادحة حديثها الذي كان من طرف
واحد مع الطفلتين:

- لا أعرف كيف أشكرك انت وزوجك يا ابنتي على كل ما فعلتموه
معنا

أرسلت غير تهيدة باعثة وهي تلتفت نحو والدته هشام وتُجيب
وكأنها لم تسمع شكرها الذي تكرر كثيرا على سمعها منذ أن حضرت
صباح اليوم:

- خالتي، جني و لجين تحتاجان إلى بيئة مختلفة، أشعر أنهما منطوقتان
أكثر من اللازم. هما في حاجة للاختلاط أكثر بأطفال، الروضة
مهمة بالطبع ولكنها لا تكفي.

زمت المرأة شفيتها وهي تناوه بيأس قائلة:

- النصيب يابنى ماذا نفعل، ليس لدينا فى أسرتنا أطفال فى عمرهما، أبناء عممتها الوحيدة كبار، وكذلك أبناء أخواتها، بالإضافة إلى أن العلاقات لم تكن تسمح بالزيارات من الأساس

نحضت عبير جالسة بجوارها وهي تربت على كتفها مقترحة بجدية:

- مارايك يا خالى، لقد تحدثت مع مُهرة صديقتى عنهما وهي طلبت مني أن أصطحبهما لزيارتها بعض الوقت يومًا

- هل هي طيبة تخاطب أو ماشابه؟

قالت عبير وهي تُلوح بيدها بحماس مبتسمة:

- أكثر من هذا، مُهرة لديها طاقة لا تنفد مع الأطفال، أطفال الحى لا يُغادرون بيتها، إلا إذا حضر زوجها من عمله أو طردكم هي لتستذكر دروسها فهي لازالت طالبة جامعية .

صمتت والددة هشام لتفكر فى الأمر، وعيناها مُعلقة بالطفلتين الجالستين بهدوء لا يتناسب مع أعمارهما فى هذا السن، ثم أومأت برأسها موافقة لها، ولم لا، ربما تتغير نفسيتهما عندما يعيشان بعض أجواء المرح لبعض الوقت فى بيئة أخرى صحية، بعيدًا عما يُعانونه جميعًا هذه الأيام .

جلس عندها أمام الطبيب المعالج، هو القريب الوحيد لها، هو فقط من يعلم عنها ما لم يعلمه غيره، حمد الله أنه استطاع الحصول على مقعد في الطائرة المتوجهة إلى القاهرة في اليوم التالي مباشرة من مكاملة هشام له، وهاهو الآن يجلس برزانة أمام طبيبها وساعده يرقد بأرجية فوق حافة مكتبه وهو يجيب عن أسئلة الطبيب بصدق:

- نعم، بالرغم من تواجدي خارج البلاد بصفة مستمرة نظراً لظروف عملي واستقرار أولادي في دراستهم هناك إلا أنني كنت أتواصل هاتفياً كثيراً مع أخى رحمه الله وأعلم الكثير عنهم، والدتها رحمها الله منذ أن تزوجها أخى وهى تعاني من مرض الوسواس القهرى، وعندما حاول أخى أن يعرضها على طبيب رفضت بشدة واتهمته بأنه يريد وضعها بمشفى الأمراض العقلية، وقد كان رحمه الله يُحبها بشدة لذلك قرر أن يُعالجها بنفسه .

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه في حقها دون قصد، فبعد أن بلغت جداول الخامسة عشر من عمرها زادت الوسواس لدى والدتها، بدأت تكره ابنتها وتقول بأنها تريد قتلها وهى نائمة، كانت تكره اسم جداول بشدة ليس لأنه اسم حماقتها فقط بل لأنه كان اسم التذليل الذى أصبح وكأنه هو الاسم الرسمى لرؤى، الاسم وحده كافٍ لجعلها تنزعج حتى بدأت تُفصح عن وساوسها بوجه رؤى وتقول لها دوماً بأنها ستقتلها وبأنها تكرهها لأنها دميمة وعينيها رمادية تُشبه عيون الأموات، وبالرغم

من أن رؤى ليست دمية على الإطلاق إلا أن معاملتها كدمية جعلتها تعتقد ذلك بل وتختلف من لون عبيها المسير أيضاً

كان خطي أنا. فقد رأيت حالتها تسوء بعد موت أخي رحمه الله ولم أفعل شيئاً لها أو للفتاة المسكينة. بعد أن انتهى العزاء ذهبت إليهما لأودعهما قبل سفرى وسمعتها تلمسها بكلمات مديئة وتعييها بأنها قادمة والدهما. وبالرغم من ذلك سافرت وتركتهما وتخلت عن مسؤوليتهما بدعوى أن هاتئ معهما لو احتاجان بشيء ضرورى سأكون عندهما في اليوم التالي. بعد أشهر قليلة هاتئني جدائل و

قاطعة الطبيب الذى كان يدرن بعض الملحوظات في دفتر خاص قائلاً بفتية:

- من فضلك، لا أحد يناديها بجدائل بعد الآن. من الواضح أن لديها إشكال مع هذا الاسم

أوما له عنيها بالموافقة دون أن تغلق فمها له الطبيب بأن يستكمل بما يعرفه عنها فقال مُردفاً:

- بعد أشهر قليلة هاتئني رؤى وطلبت مني الخضوع بشكل ضرورى لأن والدتها حانها تبدل من سيء إلى أسوء والجيران يريدون طردهما من الشقة لأن والدتها كانت تصرخ طوال الوقت فكانت تُفزع أطفالهم. وقالت لي وقتها بأن جارة لها لا أذكر اسمها منحبتها شقة أخرى بالإيجار في مكان قريب من شقتها القديمة

ولكن والدفا ترفض الرحيل وترك الشقة. ناعرت في الخصور
أسبوغا كاملا وعندما وصلت كانت والدفا حاولت أن تحرق
نفسها ولكن رؤى منعها في اللحظة الأخيرة وسمعها تنسبها لأمه
ولكن هذه المرة كان سنا مؤذيا للغاية حتى أن رؤى اهزت في
بكاء شديد وهي تقول " ليني تركتك للموت "

في نفس اليوم اقترحت على رؤى أما نجت علما البحث لها عن
مشفى أو مصحة للعلاج بعد أن تسفل إلى الشقة الجديدة ورؤى
وافقت على اقتراحى. وبالفعل أحرقها بالقوة على ترك الشقة وذهبت
بما إلى الشقة الجديدة. في نفس الليلة استلظت فرغا على صوت
تغلق قوى لباب الشقة، بحث عنهما فلم أجدهما. فتوقعت أن والدفا
هربت وهي لحقت بها. ذهبت في إثرها بعد أقل من عشر دقائق
فوجدت الجيران يجتمعون أمام البناية وبعض من الرجال يحاولون كسر
الباب والدخان يسيل من أسفله بكثرة. وبعد كسره وجدا والدفا
متحمة بالكامل في غرفة المكتب و رؤى تنف في الردهة في حالة
صدمة وخيار، وسلظت بين ذراعى بمجرد أن لمست كفيها .

ألقى كليانه وهو يحرك رأسه بدهشة فعلقا:

- هل تعلم يا دكتور أن غرفة المكتب كان بابا مفتوحا على
مصرعية وبالرغم من تحيط المرأة وهي تحترق إلا أنها لم تخرج منه
وضع الطيب قلبي فوق الدفتر وهو يسأل باهتمام:

- لماذا تقول رؤى إنما قتلت أمها، هل وجهت لها الشرطة أي اتهام
أو ما شابه؟

حرك عمها رأسه نفيًا وهو يميل للأمام قليلاً ويجيب قائلاً:

- الجيران في البناية المقابلة قالوا بأنهم رأوا النيران من نافذة غرفة
المكتب قبل أن تصل رؤى بدقائق

أغلق الطبيب دفتره وهو يستند إلى سطح المكتب بمرفقيه وهو يقول
بجدية:

- سنحتاجك هنا معنا لبعض الوقت

ظهر عدم الارتياح على وجه الرجل ومشاعره تتخبط بين الواجب
وعمله وأسرته في الخارج، ليس لديه الكثير من الوقت، يومان آخران
وسيضطر للعودة، قطع أفكاره طرقات على الباب من الخارج يعقبها
دخول هشام بلامح هفة متوقفة إلى أخبار جيدة، حياه الطبيب وهو
يفتح دفتره قائلاً:

- يبدو أنني سأعتمد عليك وحدك يا أستاذ هشام فمن الواضح أن
عمها ليس لديه الكثير من الوقت

ثلاث نظرات تقارعن فيما بين أعينهم بين ثلاثتهم فقط ..

نظرة للخذلان ونظرة للأمل ونظرة للمجهول !

خلال الأيام السابقة تغيب عادل ليوم واحد فقط، أغنى فيه انتقال
جدة زوجته إلى بيته وفعل ما كان ينتويه بخاتها الحفيرة ولم يتركه من قبضته
إلا وهو كاره للعالم وللنساء خاصة. ثم عاد للعمل بعد ذلك ليتولى أمر
غياب هشام عن العمل أثناء انشغاله مع زوجته والأطباء والذهاب
للمصحة النفسية كل يوم وهو يقوم بعمله بدلاً عنه. وقد قص عليه
عادل ما قالته له رؤى زوجته في القطار. وبأنها قالت من بين اعترافاتها
المثالية بأن والدته هشام علمت بالخلط الذي حدث بينهما وأخبرت به
جدائل. وتكتم الثلاثة الأمر فيما بينهم دون اتفاق حقيقي ولذلك ظهر
الشحوب والإرتباك عليهما عندما ذهب هشام لزيارة عادل في منزله
وتقابلت جدائل مع رؤى زوجة عادل للمرة الأولى منذ زواجهما. وكان
تصرفاً ارتجالياً من كليتهما أن يظهرأ وكأنهما تتعارفان للمرة الأولى.
وعندما اختلنا ببعضهما في الغرفة الداخلية حدث أول اتفاق حقيقي
بينهما على ألا تغير كل منهما زوجها بما حدث وليبق السر سراً للأبد
ما دام إفشاءه سبب ضرراً للجميع .

استطاع الطبيب أخيراً أن يجعلها تثق به وتتحدث إليه عما ترى
وتسمع والأشياء التي تراءى لها من دون من حولها، كان حديثها هو
الخط الأخير والذي استطاع من خلاله الطبيب ربط جميع الأحداث
بعضها البعض وإعطاء تشخيص نهائي لحالتها المرضية، وبداية علاجها

بشكل صحيح. حينها حضر هشام في الموعد الذي حددته له الطبيب سابقًا وجلس إليه وبدأ يشرح له حالتها بشكل مبسط يستطيع أن يفهمه وقال:

- زوجتك لديها حالة فصام. ومريض الفصام يعاني من نوبات هلاوس وهذيان وضلالات تفصله عن الواقع تمامًا وتجعله مؤمنًا جدًا بما يرى ويسمع من أشياء عجيبة وغير واقعية، كأن يقابل أناسًا غير موجودين على الإطلاق ويحدث إليهم، ويكون مقتنعًا بما يقولونه له. حتى لو قالوا له بأنه نبي أو رسول.

مسد هشام رأسه ثم جعل ينظر الطبيب بعشرات صاعقة ينكسر عندها الإدراك وكأنه لم يفهم ولو كلفته واحدة مما قال وهو يقول:

- لا أفهم، متى حدث لها هذا؟ (ها كانت بخير وطبيعية جدًا). أنا أعرف أن الذي يصاب بهذا المرض يكون له شخصيات متعددة وبشخصياتها وأنا لم أخط شيئًا من هذا.

اجتمع الطبيب ابتسامة من كان يتوقع سؤالاً كهذا وهو يضيف موضحًا:

- ما نتحدث عنه يسمى الانفصام أو تعدد الشخصيات وهذا مرض يختلف عن مرض الفصام الذي يعاني منه زوجتك، مريض الفصام لا تعدد شخصياته هو فقط يعيش في ضلالاته وهلاوسه.

ولو ترك بدون علاج ستفاقم حالته ومن الممكن أن يؤذى نفسه
و من حوله أيضا .

غرز هشام أصابع يديه في جانبي رأسه حتى إلتصقا من خلفها واستند
بظهره للمقعد وهو ينتظر للطبيب الذي أدرك محاولات هشام
للإستعجاب فعدل من وضع نظارته فوق عينيه وهو يشرح أكثر قائلا:

- مما سمعته عن والدتي زوجها يتضح لي بأنها كانت تعاني من هذا
المرض. والاضلالات التي كانت تعاني منها كانت تجبرها على كره
ابنيتها وتقول لها دائما بأنها ستقتلها لذلك كانت تردد هذه الكلمة
دائما على مسامع رؤى منذ سنوات. وعندما مات أبوها أمام
عينها ظلت والدتها تتحجم بحفيها أنها قتلت والدها. وبدأ
الموسوس القهري عند زوجها بتلك الفكرة. أنها قتلت والدها.
وكانت والدتها تغذي المرض فيها بتلك الكلمات حتى هربت من
الشقة الجديدة وذهبت للشقة القديمة لتحرق نفسها هناك وعندما
خفت كما رؤى ورأتها وهي تحرق وتموت حدثت لها صدمة عصبية
ورقت مكانها ولم تتحرك، وأما على يقين من أن الاضلالات بدأت
تستفحل أكثر في تلك اللحظة ولتضعها بأنها قتلت والدها بالفعل
لأنها تركتها تموت رغبا عنها ولم تتدخل لإنقاذها بالرغم من أنها
كانت مضايقة بصدمة وقتها. أنعلم أنها حكمت لي بأنها رأت حالة
في القمر وهي توصيها على ابنيتها؟

رفع هشام رأسه مشككاً وقد قطب بين حاجبيه بشدة فزوما
الطبيب مردفاً:

- أكاد أجزم أنها كانت أول نوبة هلاوس تمر بها، وبداخلها كانت
على يقين أن سب انقطاع حالة عن ريارتها المتوالية في الروضة هو
موتها.

- وهل كانت حالة رحمها الله ترونها دائماً؟

- قالت يا أحمق كانت نلغيمان بشكل فئوس، وفي كل مرة كانت حالة
تختص معها بعض من همومها القديمة وكانت رحمها الله توصيها
بأن تلقيها سرّاً بعيداً فقط، بعضها كانت أشياء تختصك يا أستاذ
هشام ولكنها كانت تعدها بذلك سعيها واستعمالها بأفضل ما
كنت تتعامل مع حاله، لأنك لا تترك لها وفي أحد هذه
المراسم قالت يا هالة يا ما كانت تكون بعد أن عشت رحمها الله
بإصابتها بذلك المرض الخطير رسالة حكيمتها لربها "يا ابن
الخط الأرواح ولكنها أصبحت غشية أن تقرأها وتخرج
الكلمات!

أطرق هشام رأسه وذكروا الحرية والعبودية تناطحت في مدار
دائره، فكأنه إلهان علمت رأى تلك الأسرار التي قرأها في الخلف، وفي
هذا المحل كانت حالة رحمها الله كانت واللذ من أنه سيحب رؤى، ولم لا
أمر بعضها كانت لكن تلك الحيلة دائماً عندما يتناجروا بأنه لم تلجها

ولن يشعر بالحب إلا مع غيرها. كان بداخلها ما ينسى فما بأنها ليست
أداة للحب في هذه الدنيا، إذن فلا وجود لشيء يسمى شبح حالة أو
روحها عادت لتنتقم ممن أذوها وهي حية. جميع ما حدث كان من صنع
مرض رؤى النفسي وخيالاتها الضالة !.

فحص الطبيب من خلف مكتبه والتف حوله حتى وقف حلف مقدمه
هشام مباشرة ثم وضع كفه على كتفه من الخلف وهو يكاد يسمع
صحيح أفكاره في تلك اللحظة ثم قال:

- رؤى كان لديها استعداد وراثي للمرض. ارتبطت بحالة للعابة
وعاشت ألمها بكل حواسها حتى أن جزء في زاوية ما يفلحها حقد
عليك لأنك كنت السب الرئيسي من وجهة نظرها في كل الألم
الذي تراه تصحداً في هذه. تلك الراوية المظلمة أنت غديتها
عندما رفضتها. ذلك المرض أنك بداخلها ما كانت تزعمه والدخا
بأنها مرفوضة ودمية، الصراع الحقيقي بداخلها بدأ عندما رأيتها
في شفتها الجديدة وأعجبتك وبدأت تتودد إليها. لم تكن تتاديتها
سوى بجدايل. شعرت بأنها تأخذ شيئاً كانت حالة محرومة منه
وتبكي لأجله، وبداخلها كرهت جدائل !. نعم كرهت هذا الجزء
من شخصيتها. الجزء المحبوب الذي سطا على شيء ليس له،
واعتقد أن بداية هذا الكره بدأ في ليلة زفافكما عندما جسدت
لها ضلالاً صورة حالة وهي تبكي في المرأة !.

الضئ هشام إليه وهو يذكر تلك التذكير التي تسعة لئلا تتعذر
أن تكلم الطبيب عنها، يذكر هذا أرفع الذي عاينه في تلك الليلة
سبب الفزع الذي ظهر على وجهها وهي لربما إلى الخلف وأصرح
مشيرة للبراق. فهل كانت لئلا فاصدة (رعاية)؟، هي والفاغدة وهو
يتكلم بما اعتدل بصدرة فستاداً

- هل كانت تعرف ما تفعله؟

سار الطبيب خطوات رتبة حتى وصل لسطح المظلل له خلف
المكتب وجلس هدوء. كان ينظر هذا السؤال من البداية على
السؤال الذي يتكرر على صدغه كلما واجه حالة مشابهة، في كل مرة
شيئا ما بداخله يخبره بأن السؤال ليس برياً أو عضولاً، بقدر ما هو
استفهام لتحديد المشاعر التي يشعرون به نحو مريضهم. هل
سيكرهونه لإدراكه ما يفعل أم سيتفقون عليه لمرضه الذي يروح عنه
التحكم، ألا يكفي ما يعاني منه، ليجعلهم يشكرون أكثر في الأسباب
التي أدت به إلى هذه الحالة. أم كل المهيم في تلك اللحظة معرفة مدى
مسؤوليته عما يحدث، مثل القضاة ليتم إصدار الحكم على أساس
التقرير الطبي^{١٧}، عندها شرد في قول إحدى زميلاته الطبيات لما كان
يتناقشها عن مدى تعاون أهل المريض معها فقالت له فحبة تساؤله "لا
يهمهم أن يخرجوه من ظلمته، بقدر ما يهتمون بمدى مسؤوليته عن

إبدال الستائر السوداء " ، رفع عينيه إلى هشام الواقف أمامه بشيء من التحفز وقال عجيباً وهو ينظر لعينيه بعشق وتركيز .

- هل تستطيع أن تشعر يا أستاذ هشام بمعنى أن صوتاً ما يطل بهمس في عقلك ليل تمار بأنك سارق !. بأنك قاتل ، بأنك فاكس فأكينة فخرمة !. ولا بد وأن تتعذب بها وتخرج من جسك !. هل تستطيع الشعور بمشاعر المريض عندما يرى وحده أشخاصاً وهمية يدورون من حوله في كل مكان يأمرونه بشيء ويقنعونه بتنفيذه. حتى لو هذا الشيء هو التخلص من حياته !. إذا استطعت الشعور بذلك فوقتها ستعلم الإجابة الصحيحة .

خرج هشام من حجرة الطبيب بعد قليل من المناقشات الأخرى عن حالتها ودوره هو في الأيام المقبلة. وقد توقف عقله عن طرح الأسئلة. وبدأ يأخذ منحى آخر عن كيفية إخراجها مما هي فيه. وبدأ يخله يقين بأنه هو المسؤول الوحيد، لابد وأن يتخلص من تلك النظرة الضيقة التي أهلك الماضى وكانت في طريقها لسحق الحاضر أيضاً. عندما وصل إلى حديقة المصححة النفسية وجد بلال ينتظره هناك، وبمجرد أن رآه قادماً خفض واقفاً واقترب منه يربت على كتفه متسانلاً عن حالتها وهل استطاع الطبيب تشخيصها والإلمام بما أم لا، جلس هشام إلى الأريكة

الخشبية بخوارده وهو ينظر إلى المساحة الخضراء أمامه فجئنا بصغير
مُعَذَّب:

- زوجتي هالة رحمها الله كانت تقول لي دوماً والعبرة بتحفيها بأني
سأحب من بعدها وسأتعذب بهذا الحب مثلما شقيت هي بحبي.
الآن شعرت للمرة الأولى بما كانت تشعر هي به رحمها الله
جلس بلال بخوارده وهو يلتفت بجسده كلية تجاهه قائلاً:

- من الجيد أن نتعلم من أخطائنا السابقة ونستفيد منها إذا كنا نحضرنا
ومستقبلنا. لا أن نقتل أنفسنا بها. ولذلك فحالت لي ما رآته من
بشریات على وجه زوجتك الراحلة أثناء تعسبها ولو كان الأمر
كذلك فاعلم أنها الآن ضائعة وقد نسيت كل أذى لحق بها في
الدنيا. وكأنها لم ترى شراً قط في حياتها. هكذا هي أرواح المؤمنين.
مال هشام بخذعه للأمام وقد ارتسمت ابتسامة تلقائية على وجهه
وهو يقول مُستبشراً:

- هالة في أيامها الأخيرة لم تكن تترك ليلة إلا قامت فيها تُصلي
حتى تتعب وتنام في مكانها. عندما حملت نعلها كانت أخف ما
يكون ورائحتها كانت طيبة للغاية لكنني وقتها كنت مشغول
بمسؤوليتي الجديدة فلم أنتبه إلى كل تلك العلامات الرائعة
ابتسم ساخراً من نفسه وهو يعقب على حديثه متابعاً:

- الطبيب قال لي انما كانت في منتهى الذكاء عندما كنت لي في
غاية وصيتها

أحذر غصني " كانت تخشى على الفتاتين مني فكتبتهما على سبيل
التحذير وهي موقنة بأنني سأتوقف عندها كثيرا، تصور يا دكتور بلال،
بالفعل صدقت أن روحها عادت لتنضم مني ومن زوجتي ووالدتي .
نسم بلال بدوره مستندا إلى ظهر الأريكة مكتنفا ذراعيه فوق صدره
وقال:

- ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان عندما يموت
وتنقش نفسه تصعد بها ملائكة الموت إلى السماء ولا تقبض بها إلا
عندما يدخل جسده القبر. فضاء روحه إلى جسده بكيفية لا
يعلمها إلا الله. وتجلسه الملائكة لتسأل عن عمله ودينه ونبيه. لو
كان خيرا فستصبح روحه فرحة. وتلك الروح الطيبة المنعمية لا
تعود لتنضم يا هشام. بل أكثر ما تستطيع هو أن تأتي في منام
مستشرة تبشر أحبابها بالخير. أما إذا كانت روح فاسق والعباد
بالله أو عاصي فروحه مضطربة في شغل بعدائها. كما هو السجين
المُعذب لا يستطيع فكائها. والاشئان في عالم البرزخ حتى قيام
الساعة. وما نسمعه من حكايا حول رؤية روح أو شيخ فلان
الذي مات فهو إما أن يكون مجرد تخيلات أو أن الجن تشكل في
صورة ذلك الشخص لأي سبب كان. وهذا الأخير حله بسيط

للاغاية، سورة البقرة وينتهى كل شيء، لكن لابد أن تؤمن بذلك لا
أن تفعلها على سبيل التجربة .

غلف حديثهما الهادىء المتأمل انسياب زقزقة العصافير المتناغمة
بينهما وقد سطعت أشعة الشمس فى ذلك اليوم بالرغم من برودته التى
تُعلن عن رحيل فصل المطر بكل ما فيه من شجن ووجع، تاركًا ذكريات
دافئة لا يمكن محوها .

تنفس هشام بعمق قبل أن يُحرك رأسه مؤكدًا وهو يتذكر حديث
صديقه عادل عن سورة البقرة، أدرك الآن لماذا لم يكن يحصد ثمارها،
لأن كل ما كانت تراه رؤى هو محض عقلها فقط !، تغضنت زوايا عينيه
عن ابتسامة حزينة وهو يتذكر كل الليالي التى جافاه النوم بها وهو يشعر
بما حوله، وينسب لها كل فعل غامض مر به، حتى المرأة العجوز فى
المتجر، تبا للوهم !

- ألم تخش على نفسك يا دكتور ونحن نقف على باب الشقة
ونفتحها؟

التفت إليه بلال بابتسامة مُتعبجًا من سؤاله المتأخر جدًا، رفع
حاجبيه بدهشة وهو يجيبه ملوحًا بيده ببساطة:

- ألم تسمعى ونحن فى السيارة قبل المغرب وأنا أهمهم بأذكار المساء
كاملة وآية الكرسي؟!، ثم أننا كنا على وضوء وقد صلينا المغرب
فى المسجد فممن أخشى إذن؟!

تتحنح هشام نخرج وهو لا يعلم بماذا نجيب. لقد كان وفيها في عاده
آخر بحارب مخاوفه وقلقه من كل شيء. فنهض واقفا ليروح فعضده.
وعندما عرض عليه بلال أن يقله إلى حيث يشاء بسيارته. رفض شاكرا
إياه فهو يريد أن يسير وحده قليلا. ليحاسب نفسه ويضع يده على
مواطن الزلل فيها.

سار بطيئا وهو يتأمل الطريق المعبد أمامه وكلمات الطبيب الأخيرة
تخلج ثوابت ذكرياته عن زوجته وتغلب يد في انسافة أخرى لم يكن
يعلم عنها كل شيء. كيف يمكن لامرأة أن تكره جزء من شخصيتها؟!.
الجزء الذي حظى بحب والدها وكرهته والدتها. ثم حظى بحب هشام
وتقبل والدته فلم لا تكرهه هالة؟ لا بد وأنها كرهته ولا بد وأنها تريد
الانتقام مثل والدتها ثامنا! حدابل تلك انتزعت كل شيء وسرقته من
رؤى ثم من هالة فلا بد وأن تحظى. أو ربما تموت! هكذا قالت للطبيب
وهي تعاني إحدى التوبان بينما هو يستدرجها. وهكذا حاول الطبيب
شرح حالة رؤى له بكل ما يستطيع تبسيطه من معلومات عما يعمل
بوجدانها. لن يدفن رأسه في الرمال كالسابق. سيكشف بجوارها حتى تُشفى
وتخرج من المصححة وقد تصالحت مع نفسها قبل أن تتصالح مع من
حولها. ولكن هذا لا يكفي. لا بد وأن يقوم بالفعل ولو لمرة واحدة. لا أن
تكون كل تصرفاته مجرد. ردود أفعال!.



بضعة أشهر أخرى حصلت بؤى خلافه للعلاج الدوائي والجلسات
 المكثفة مع عنها الطبيب الزيارات التحلي ذهيبا من تكر الصدمات
 متحطة من الممكن أن تعرض لها إذا رأت هشام لديها ، في
 الجلسات بمرحلة خفيفة أو مجرد حكايات فيفي في الأصل لم تكن تعرف
 بأنها مريضة وبأن كل ما عالته مع ذلك بعد الموت كان هلاوس
 وحالات. وان كل ما رآه في نفسها المنحورة كان من صنع عقلها
 رفضت وفارقت ورفضت الخدمت بل ورفضت أن تفتح عينها لـ
 الجلسات وازدادت وتيرة الهويات. لذلك أصر الطبيب على بقاء في
 المصححة وعدم خروجها حتى تبدأ تعرف على مرضها ، فهو الزكاه على
 حقيقته خلقت خطوة كبيرة في طريق علاجه. وكانت الأشهر الماضية
 كقيلة بذلك. استطاعت أن تفهم ملامحة مرضها. طريقة وطريقة التعامل
 مع نوباته وهلاوسه. لارالت تذكر الصلعة التي سقطت على وجهها
 عندما كانت بنسقتها وصمعت الباب الخارجى يفتح. ولها كانت ترى
 هالة تغذب جدائل. ولكن الآن أدركت أن تلك الصلعة كانت من يدها
 هي. وقد سقطت على وجهها هي أيضا. وعندما بدأت ترى الأمور من
 منظور مختلف سمح الطبيب لها بالزيارة. وكان أول زائر لها هو هشام.
 كان يعمل لها مفاجاتان. اختار أن يمنحها إياهما في نهاية الزيارة لتكون
 خاتمتها سعيدة لها .

استقبلته ببرود في حديقة المصححة الصغيرة، حتى أنها لم تبسم لعينه وهو يقبل عليها بلهفة وشوق، كتفت يديها فوق صدرها بينما يعد هو يده ليصافحها، تجاهلت يده ونظرت في الاتجاه الآخر وهي تقول بخفاء:

- لماذا لم تحضر معك جنى و لجين، لقد اشتقت إليهما

جلس على مسافة غير قريبة منها كما نبهه طبيبها من قبل وقال بابتسامة:

- وهما أيضًا اشتاقا لك للغاية. سترينهما في الزيارة القادمة بإذن الله

صننا ولكن الكون لم يسكت، النساء الباردة كانت تحوم حولهما تنفس دفء أنفاسهما، وأصوات قريبة مختلطة تنكسر أمواجها في المساحة الشاغرة بينهما بدوى صامت كصمتها الظاهري فقط، بينما هو لا يجزؤ على الخطو فوقه أو تجاوزه. حتى استطاع إجبار نفسه على الخروج من خلف ذلك الصمت السائر الذي يحتمي به، والذي تشقت فشرته الخارجية وصار يتهاوى بعد أن قال لها بخفوت:

- سامعيني، أنا لم أشعر بك كخاية

التفت إليه دفعة واحدة بحركة حادة وصدرها يكم أنفاسه رغمًا عنها بينما تتكلم من بين أسنانها بغضب خافت، يكاد يصل إلى الهمس:

- أسامحك !. ومن أنا لأسامحك. أنا حية، أعيش، أنفسي، لي إرادة القبول والرفض. أما من تستحق طلب السماح الحقيقي منها،

ميتة، لا إرادة لها، تحت التراب، فلا هي تملك ان تُساعحك
وترتاح، ولا هي تملك أن ترفضك وتُحيل حياتك إلى جحيم،
ذهبت إلى ربها بألمها ووجعها الذي كنت أنت السبب فيه، بينما
أنت تعيش حياتك وتتزوج وتُحب وتسعد، وتنساها .

رفعت يدها وهي تُشير إلى صدرها هامسة بحقد لا تعلم إلى من هو
موجه في تلك اللحظة لنفسها أم له أم للآخرين معاً:

- تتزوج من أخرى، تُحبها كما لم تحب هالة، تقول لها ما لم تقله يوماً
لهالة، تحميها وتُساعدها وتُسعدها وتفهمها كما لم تفعل مع هالة،
أخرى سارقة، تُحب دوماً أن تأخذ ما ليس لها، تنعم به بأنانية بينما
من تستحقه تصرخ وتصرخ وتصرخ ولا أحد يسمعها .

الكلمات الأخيرة خرجت عن حدود الهمس، خرجت من حلقها
بصراخ متألم يتلوى كعواء حيوان يحتضر، صراخها لفت الأنظار ولاحظ
هشام الطبيب مُقدماً عليهما بخطوات سريعة وقد كان يُراقب الوضع من
قريب، وعندما وقف بجوارها قال لها مُعائباً:

- ألم نتفق على أن نكون هادئين اليوم

شردت قليلاً قبل تقول بخفوت وهي تحيد بنظراتها عنهما:

- أريد أن أصعد لغرفتي

كاد هشام أن يناديها بجدايل وهي تستدير لتصرف ولكنه تذكر ما قاله الطبيب بأن لا يفعل، ليس قبل أن تتصالح مع ذلك الاسم مُجدداً، فنادها على الفور قبل أن تبعد وهو بحث الخطوت نحوها

- رؤى، لا زال هناك شيئاً هاماً أود قوله لك

حشها الطبيب على النظر إليه وعندما التقت عيناها قال بحماس:

- لقد راسلت الأستاذ عيد الخالق مروان وهو وافق على مقابلتي. التقينا منذ أيام وتحدثنا عنك

نظرت له بتحفيز ثم تبادلت النظرات مع طبيبتها قبل أن تقول بترقب:

- عني أنا؟!

أوما برأسه والخماس لا يزال يشوب نظراته ونبرة صوته وهو يجيبها:

- الرجل كان في الأصل يبحث عن عنوانك أو شيء يتواصل به معك. وعندما علم بأنني زوجك رحب بتقابلتي جداً. هو فعجب جداً بأسلوبك في الكتابة إليه ويقول بأنك موهوبة ويريد التحدث معك شخصياً. فهل تسمحين له بأن يرأسلك؟

اختلط الترقب الذي كان يكسو ملامحها بشك وتكذيب لكل كلمة قلها فالتفت الطبيب نحوها وقال مؤكداً لحديث هشام:

- حقيقي يا رؤى، والأستاذ عبد الخالق هاتفى ليظمن على حالتك وهو سعيد جدًا بتقدمك فى العلاج ويريد أن يرأسك على بريدك الإلكتروني

رفعت كتفها حائرة ولازال الشك يعث بها وقالت بنظرات تائهة:

- ولكنى لا أملك واحدًا !

أشار لها هشام بيده أن تنتظر لثوانٍ، عاد سريعًا إلى الأريكة الخشبية حيث كانا يجلسان منذ قليل، حمل الحقيبة الجلدية التى تركها هناك ثم عاد إليها وقدمها لها وعيناه تترجأها لأن تقبلها قائلاً:

- هذا حاسوب محمول تستطيعين مراسلته عن طريقه،

ثم تابع بحرج بالغ ظهر جليًا فى حركة عينيه التى انخفضت قليلًا للأسفل ويديه التى لم تعد ممتدة باستقامة نحوها:

- صحيح هو مُستعمل، وليس به إمكانيات كبيرة، ولكنه يفى بالغرض

أشار الطبيب للمرضة أن تأتى لتصحبها ولكنها غادرت بخطوات مترددة دون أن تلتفت، أطرق هشام رأسه أرضًا بإحباط وقد كان يتوقع رد فعل مختلف على ما قاله لها، ولو حتى ابتسامة صغيرة تبثه الأمل، وضع الطبيب راحته على كتفه وسار إلى جواره بخطوات قبل أن يقول بتفهم:

- ما رأيته حاليًا هو أفضل بكثير مما كنت أتخيل، كنت أعتقد أنها
لن تنظر إليك بالمرّة ولن تنفوه بكلمة معك وستجاهلك كليًا،
ولكن التفاعل الذى حدث منها أيا كان هو علامة مباشرة للغاية
على تقبلها لك بحياتها، بل وتلومك أيضًا، وهو مؤشر قوى
لبداية تسامح بقلبها تجاهك، اصبر قليلاً والتزم بما اتفقنا عليه ل
كل زيارة قادمة ولا تتعجل خروجها من هنا .

كان يعلم جيدًا إلى أين تأخذه خطواته ذاك النهار، حيث الهدوء
والصمت اللانهائى، حيث الماضى الذى يحن إلى أيامه، ويتمنى أن يمرق
شيئًا منه إلى حاضره، الماضى الذى مر من بين أصابعه وهو عالق فى
التمنى، مُنتظر أن تُحل مشاكله تلقائيًا دون تدخل منه !، تلك المشاكل
التي تلوى حلقه الآن بمرارتها حيث اللا أسف، ألا رجوع، حيث لا مفر
من الوقوف امام قبرها بخشوع، والدعاء المفروط من عقد الدموع،
مُحاولاً بجهد سحب أخطائه من فوق قمم جبالها، تحريرها من عقابها، ربما
من بين ندباتها تظهر حلولها .

وقف أمام القبر لا يدري ماذا يقول، إلتصقت الكلمات بحلقه، منذ
متى وهو يفكر قبل أن يتحدث إليها، أليس الحديث إليها سهلاً
الآن؟!، فلماذا يهاب، لم يعد الآن وجود للحد الفاصل بينهما، الحد
الوهمى الذى اكتشف أنه كان يبنيه بنفسه ويحرص عليه، ابتسم ساخرًا

من نفسه وهو يهمس مُعترفًا بذاك لنفسه قبلها ويهبط على ركبته أمام
حروف اسمها المنقوشة فوق شاهده:

- دومًا ما كنتُ أراكِ أفضل بكثير، بكثير مما كنت أبوح به أمامك.
كنتُ أشعر بأنكِ تستحقين شخصًا أفضل، بأنكِ زائرة في بيتي،
حبك لي كان أقوى من أن أستوعبه، من أن أتعامل معه بما
يستحق، كنتُ أرى نفسي أقل بكثير من أن تمنحيني كل شيء كما
كنتُ تفعلين، منحيتني كلك وضنتُ عليك ببعضي، لا لبخل
مني، ولكن لخوفي من أن يكون هذا البعض لا يليق بك، وبدلًا
من أن أبذل الجهد لتحطيم هذا الحد الوهمي، أستسلمت لسلبيني
وتركتك تعانين متصورة بأنني لا أحبك .

مال بزاوية حادة يجذعه نحو الجزء المرتفع من القبر، حتى تغير طرف
أنفه بترابه هامسًا بأذنه كما لم يفعل يومًا مع من تسكن وحشته، متوهما
سماعه لحفقات قلبها:

- صدقيني أحبيتك يا هالة، الآن أمنح عمري لأي وسيلة مُستحيلة
تجعلك تُصدقين، بينما كانت الوسائل كثيرة أمامي من قبل وأنتِ
على قيد الحياة فلم أعرها اهتمامًا يليق بك، أزاح موتك رداء
صمتي وظهر خذلاني المُتكرر لك بوضوح يُعربني ويكشف
مساوئي، أنا أطلب الصفح منك، متأخرًا جدًا أعرف، ولكن أن
آتي متأخرًا خيرًا من لا آتي أبدًا .

سقطت دمعاته الصامته فوق التراب الجاف أسفل وجهه، فتركته
ندياً، بينما جذب بصره للأعلى أشعة الشمس التي بدأت تعلو من فوقه
وتبعته راحة دافئة في قلبه، أعاد نظراته المحملة بروحه إلى القبر من
جديد وهو يستقيم قليلاً هامساً:

- حبيبي، علمتُ بأن الدموع والخسرة والندم لن تُفيدك، فأرجو ان
يتقبل الله مني ما سأفعله لك من صدقات جارية، وهذا أقل ما
أقدمه لك بعد أن فشلت بتقديم أبسط ما تتمنين في دنياك،
أبشرك بأن بناتك تحسنتا كثيراً وأصبحتا تقاربا في حديثهما غيرها
من الأطفال، والعام القادم إن شاء الله ستكونان في صفهما الأول
في المدرسة، أوقاتي التي كنتُ أبخل عليهما بما أمنحها لهما الآن
بكل حب، سأحفر اسمك بقلبيهما إن شاء الله حتى لا تسجد
إحدهما سجدة في يوم من الأيام دون أن تتضرع إلى الله بالدعاء
لك.

شعر بخطوات تتقدم نحوه يتبعها كف ثقيلة استراحت على كتفه من
الحلف، وبرد فعل تلقائي أخرجه من حالة الطوف التي كان يدور قلبه
بها في التو، انتفض ناهضاً ملتفتاً خلفه، فوجد امرأة عجوز سمينة تتوشح
بالسواد وتغطي به نصف وجهها قائلة برجاء:

- رحمة ونور يابيه

لم تستطع رؤى أن تُنكر أن رسالته الأولى إليها والذي كان يرد بها على رسالة منها لتعرفه بنفسها على استحياء رفعت من معوياتها إلى قسم الثقة التي لم تزورها يوماً، وكأنها منطقة ضبابية موضوع عليها للأبد لافتة ممنوع الاقتراب، خطراً، توقفت عينها كثيراً على كلماته عن إيمانه بموهبتها وقدرتها على تحمل مسؤولية عامود كبدية لها ضمن عواميد التواصل مع القراء بالجملة، وعندما سألته عن مدى توافق ما يقوله مع حالتها العقلية وهل سيثق القراء بما أم لا؟، قال لها حروفاً نقشتها في قلبها بعد أن منحتها الشعور بالاختلاف الجيد، " الفرق بين الجنون والإبداع شعرة واحدة، العبقرى مجنون بطبعه إلا أنه يُدرك ذلك ويقوم بتوجيهه داخل إطار إبداعي، وهذا هو الاختلاف " .

بعد تلك الكلمات قررت الموافقة على عرضه بالكتابة الحرة لى عامود خاص بما فى المجلة التى يكتب بها، وستكون كتاباتها تحت عنوان " قالت لي "، وعندما ناقشت الأمر مع طبيبها قال مُشجعاً:

- اسمعني جيداً يا رؤى، أنت الآن تخطيت مرحلة كبيرة فى طريق العلاج، تعرفين مرضك وتعرفين كيف تواجهيه بمقاومة تلك الهلاوس، لو اخترت الطريق السهل معك والذي يتبعه معظم الأطباء العرب بل والكثير من غير العرب أيضاً، لكنك منحتك الأدوية وتركتك تخرجين بعد أيام تصل بحد أقصى إلى الشهر من المصححة على مسئولية عائلتك وينتهى دورى بعد أن أنهى على

عائلتك بأنك لو توقفتى عن تناول الدواء فسبعود المرض أقوى من
كان. وتطلين طيلة حياتك أسيرة تلك العقاقير التى لم تسجن
سوى البرودة مع زوجك وكثرة النوم والحدود الخمدج لأنه
بالمخدر، إلا أننى أستخدم معك الطرق الأصعب للعلاج ولكنى
الأنفع لك فيما يخص حالة الفصام تلك. أنا أعتمد على قوتك و
الرغبة بالشفاء الكامل وقد توقفتنا تدريجياً عن الأدوية ومستمرى
بالجلسات، وستطلين هنا فى المصححة حتى إذا أدى الأمر لعام أو
الثنين. حتى تتغلين عن أخطاوس والضلالات التى تعتربك
وترفضينها بإرادتك وليس بتلك العقاقير. عندما تحدثت إلى
الأستاذ عبد الخالق مروان شرحت له أن ما يدور بذهنك سيظل
لامعاً متوهجاً مادام فى غلظتك فقط. أما لو خرج على الورق، بل
وتفاعل مع الناس وحدث خلاف ونقاش، سينطفئ من تلقاء
نفسه ويذبل. نعم ربما لا ينتهى تماماً ولكنه سيأخذ مساحته
الخيالية التى توجد لديها حصة مع الفروق الفردية طبعا ولكنه فى
كل الأحوال لن يبعدها، وافقتى بأرؤى واكتفى وتحدثنى إلى الناس
بما تربنه حتى لو كان هذياناً !

حديث الطبيب، وإيمان الأستاذ عبد الخالق مروان بما ألهم حماسها،
إلا أنه لم يمنع ذلك الخوف الدفين من الفشل، الفشل الذى كان يتجسد
فى الضلالات الكثيرة التى تنتابها باستمرار والتى تتجسد لها بوالدها
وهى تقول بأذنيها " أنت فاشلة "، والحزى والأسف الذى تراه متجسداً

في وجه هالة التي تأتيها من عقلها لتهمس لها " هل ستسعين بنجاحك
بينما كنت أنا أتعذب "، ثم يأتي والدها ليلاً بدماءه التي تقطر من
حنجرته ليصيح بها زاجراً " كيف تفعلين أمراً دون موافقتي "، وفي كل
يوم تهمس لنفسها بأنهم ليسوا حقيقيون !

مع الوقت تعلمت بالطريقة الصعبة أن تتجاهل تلك الحيات
والأصوات، لأنها أدركت ببساطة أنها تتبع من عقلها فقط، ليست
حقيقية، وكان اللحظة الفارقة بعمرنا هي تلك التي نتوقف خلالها عن
تنفس الزيف وفتح نافذة جديدة نُحملُ هواءها برياح التغيير، فوافقت
وأرسلت له بريداً إلكترونياً تُعلن فيه موافقتها، فأجابها بسعادة أنه
سيقدمها بنفسه للقراء في عدد المجلة القادم وهو يضمن لها بيقين أن
طباعات المجلة ستنفذ من أجلها، من أجل تلك الكاتبة الغامضة التي
كانت الأموات ترأسله عن طريقها !

لأول مرة تغمرها سعادة خالية من تأنيب الضمير على مدى سنوات
عمرها وهي تُمسك بالمجلة بين يديها وتقرأ ما كتبه عنها بفخر، وهو
يحكي قصة صمودها رغم كل ما عانت، وبعد قراءه بكاتبة صحفية ذات
طراز فريد، قلمها لن يتقيد بقيود المنطق أو الواقع، وستعامل مع
رسائلهم على أن كل ما حوّاها حقيقي جداً، مهما كان خيالياً جداً !،
بل وستجيبهم على تساؤلاتهم بخيال يفوق خيالهم بكثير .

وترفرق الدمع بعينها عندما وصلت لأخر كلماته وهو يحتم مقادير

كانتا:

- وأعرف أنا من النفوس الطيبة التي تغفر ميثما قست عليهم
الحياة وتنتظر الخير العميم الذي تدخره لها الأقدار .

عندها فحضت من فوق الأريكة الخشبية في طريقها لغرفتها حيث
الحاسوب المحمول وقد نسيت ثامنا هشام الجالس بجوارها والذي أحضر
لها المجلة اليوم ومنحها إياها بابسامة فشحمة. ولكنها توقفت فجأة قبل
أن تخط أول درجة من السلم الخجري القصير الذي يعلو أرض الحديقة
الخضراء الندية. أصوات لعب جنى و لجين هي ما جعلها تتوقف
وتستدير نحوهما، حتى هذه اللحظة لا تصدق بأحدا قد تغيرا ثامنا وكان
الحياة الطفولية الصاخبة قد نبتت بسا من جديد. فرت دمعة رغما عنها
من سجن جفنيها وهي برأيهما وحيتها شغرت بأنامل هشام تمسحها
خفة نسي بوقوفه قريباً جداً بجوارها. أسبلت جفنيها وهي تدفع عقلها
بالنظر إلى الماضي نظرة محايدة تحصد هو وهالة، ثم رفعت عينها بإدارة
لم تصدر منها نحوه إلا اليوم وقالت بهدوء:

- امنحني بعض الوقت

ابسم وهو ينظر إلى عينها نظرة متوهجة مفعمة بسطوع مفاجيء
لأشعة الأمل بمقلتيه فرفعت حاجبيها وغممت بدهشة:

- أنا لم أقل شيئا. يستحق كل هذا.

قاطعها على الفور بشغف وليد للتو حاول التحكم به، مانعاً قدميه من الاقتراب تلك الخطوة الأخيرة والوحيدة الفاصلة بينهما:

- ليس لكلماتك فقط، بل لأن عينيك الشتوية قررتا أخيراً العفو عني وأنت خصامها الطويل لعيني .

ظلت تنظر إليه لثوانٍ محدقة به وكأنها لا تستوعب ما قاله، شعر هو بأن تلك الثوان دهوراً طويلة منتظراً أحد ردود الأفعال الإنفعالية على كلماته، ولكنه وجدها أخيراً تُرفرف بأهدأها سريعاً ثم تُطرق أرضاً وتلون وتجتأ منذ أشهر بعد هجر طويل خلف الشحوب وقد أدركت للتو ما حدث من تقارب بينهما، وغمغمت بشيء ما فهمه هو على أنها تستأذن للانصراف وهي تخطو خطوات سريعة هابطة الدرجات القليلة، قاطعة الحديقة بسرعة يغلفها الارتباك وتقرب إلى العدو مما جعله يبتسم وهو يستنشق الهواء بقوة ويملاً به صدره بتفاؤل لم يشعر به منذ شهور مضت، رفع وجهه للأعلى وقد بدأت قطرات المطر الخفيفة تهفت إلى جبينه فأعاد رأسه للوراء أكثر ساعماً لها بمحو ثقل أخطائه المحفورة عن أرض ماضيه المتخنة بالجراح .

أما رؤى فقدت أغلقت خلفها باب حجرتها التي تتشارك فيها مع مريضة أخرى، تلك المريضة الغامضة التي تُثير بداخلها الفضول لمعرفة حكايتها، وفي يوم ما ستكتب عنها. جلست أمام الحاسوب وبدأت تسطر أول كلماتها:

" أكتب إليكم أول كلماتي وأنا ما زلت نزيله المصححة النفسية أتلقى
الجلسات، ليس الشعور بالتعافي هو فقط ما يمنحني القوة الآن
لمواجهتكم، بل ربما الجزء المريض هو الذى يفعل، فالتعقل الشديد هو
الذى يجعلنا نَجْبُن أحياناً ! .

سأحكي لكم فى كل مرة بعضاً من خيالاتي، منها ما هو حدث
بالفعل، ومنها ما لستُ مُتيقنة حتى الآن هل هو حقيقي أم لا وسأنتظر
تعليقاتكم عليها، بحكايات مُشابهة، حكايات ومشاكل مطمورة تخشون
البوح بها، فالكثير من البشر يقتات على الخشية!، يعيش بها، ويموت لو
هُدد بكشف غطاءها .

حدثيني عنه وما تتمنين منه، وما تكرهين فيه، هو نصفك الآخر

حدثني عنها، أزفر بما يعتمل بصدرك لها، هى عالمك الآخر

أما ما سأكتبه الآن لكم فهى حكايتي أنا، قد تعتقدون أنها مجرد
حكاية، وقد ترونها دعوة لفهم العالم الآخر" .

.. تمت بحمد الله ..

صدر للكاتب :

أولا : الروايات الورقية :

١. إبحار رواية
٢. اكتشف زوجي رواية

ثانيا : الروايات الإلكترونية :

١. اغتصاب .. لكن تحت سقف واحد رواية
٢. مع وقف التنفيذ رواية
٣. ولا في الأحلام رواية

وَقَالَتْ لِي!

تفحص الكاتب الصحفي عبدالخالق مروان الظروف بين يديه مندهشاً، ثم بدأ في فتحه وفض الأوراق منه وقراءة ما بين سطورها بفضول، حينها علم بأنه أمام حالة فريدة من نوعها تحتاج إلى تأمل وتمهل لفك أحجيتها والغازها قبل الحكم عليها، وقد تيقن من ذلك عندما وصلت عيناه لأخر سطور مقدمة الأوراق وقد كتبت له الرسالة فيها: "وسأظل أرسل لك تفاصيل زياراتها لي في شقتي المهجورة، وفي كل ظرف سأرسله لك ستجد عليه عنواناً يتوسطه من الخارج وهو نفس العنوان الذي كتبت به على الظرف الذي بين يديك الآن، (وقالت لي)، لا أريد منك تصديقي، أريد فقط أن تنشر شكواها، لعل روحها تهدي قليلاً وينقطع شبحها عن زيارتي".!



غلاف: إسلام مجاهد
الغلاف الخلفي: م. م. ماطمة الجندى

مصري
لكتاب